الى القارىء

عندما يصدر هذا العدد في فاتح السنة الجديدة يكون الرواد الاميركيون الثلاثة ، الذين امتطوا المركبة الفضائية للاقتراب من القمر والتمهيد لعملية الاقمار المقبلة ، يكونون قد رجعوا الى الارض وحققوا حلما كان يعتبره العقلاء من البشر مستحيلا ، ويظنه الخلاقون من الكتاب والشعراء ضربا من الخيال المجنح ، ولونا من ألوان تيه الانسان في مغابن المجهول وزائف المغامرة قصد بعث البشرية نحو التقدم المستمر ، وحثها على ألا تقف في حدود الواقع والمعقول المنسابين من الفكر النير انسياب الماء من بين الاصابع ٠

واذا كانت المبالغ المالية المرصودة لشؤون الفضاء بالولايات المتحدة وروسيا معا تساوي خمسين مرة الميزانية السنوية للجمهورية التونسية ، وتجعل الكثيرين يشكون في جدوى مثل هذه المجازفات بالنسبة لسعادة البشرية وازدهارها ، فانه لا يمكن ان نوقف البحث العلمي عند حد معين أو أن نكبت توق العقل أو طموح الانسان الى غزو المجهول وتجاوز الذات ، على أن العبرة التي على شعوب العالم الثالث استخلاصها هي تركيز التربية على أساس العلم واعطاء الأولوية الى تكوين الاطارات العليا ٠

غير أن هذا الرقي المادي الذي يبهر العقول ويستهوي القلوب وينشط له المثقف وغير المثقف ويتمتع بثمراته جميع الناس على مختلف مستوياتهم ، يحفز على التدبر والتروي في مصير القيم البشرية من محبة وخير وصدق واخلاص ٠٠٠ ذلك أن القفزة التي لمسناها منذ انبثاق هذا القرن في مجال التقنية والتكنولوجيا لم تغير تغييرا جذريا الاخلاق على المستوى الدولي والفردي ٠ فالعنف ما زال يرود الكثير من بقاع العالم والحقد وألوان الغدر ما فتئت تغذي أعمال الكثير من الافراد ٠

فهذا التفاوت بين التقدم العلمي المادي المشع على العالم خيرا ونعمة ، وبين رواسب الاخلاق المنحطة وقانون الغاب ، هو الذي يحز في النفس ويجعل كل فكر يقظ تواق الى الخير يميل الى الشك في جدوى مثل هذه المغامرات وأثرها الحسن في سلوك البشر ٠

ورغم ذلك فاننا ــ ونحن على أبواب السنة الجديدة ــ نأمل أن يسود سنة 1969 السلم بين الشعوب ، وأن يطغى على النفوس حب الخير والنزوع الى سامي الاخلاق ، حتى يمحى التفاوت بين قدرة الانسان في سيطرته على الطبيعة وما فوق الطبيعة ، وقدرته على أن يسيطر على نفسه الأمارة بالسوء ويغلب تقواها على فجورها ٠

الفكر

اللغة العربية والتقدم الفكري

بقلم : البشير بن سلامة

لماذا قرنت بين اللغة العربية والتقدم الفكرى ؟

أليس من المفروغ منه أن اللغة من واجبها أن تتضمن التطور والتقدم وأن تحمل بين طياتها ماضى الامة وحاضرها ومستقبلها ؟ ثم أليس من المسلم به أن اللغة العربية حملت عبء رسالة من أكبر الرسالات فى النهضة بالبشرية والتقدم بها الى مفاهيم جديدة تخص علاقة الانسان بربه وبأمته وبنفسه ؟ لماذا إذن هذا الالحاح فى تأكيد أمر هو من قبيل تحصيل الحاصل ومن المسلم به مبدئيا ؟

إذا كان من السهل لاول وهلة أن نسلم بعظمة اللغة العربية وبقداستها وغزارتها وقوتها وإعجازها فانه لا مفر لنا ـ إذا وضعناها إزاء لغات حية أخرى تبزها ـ من حيث نفاذها الى مختلف المفاهيم الجديدة العلمية والفلسفية والفنية ـ أن نسائل أنفسنا عن حظ لغتنا من التقدم الفكرى وعن قدرتها على أن تحمل رسالة التقدم الى جانب الانقليزية والروسية والفرنسية والايطالية وغيرها من اللغات • وهذا ما أردته : أن ننظر فى مدى قدرة هذه اللغة ؟ والى أى حد تصل إمكانياتها وما هى العوائق التى تجدها فى طريقها فتصدها عن السير الطبيعى •

لقائل أن يقول : هذا موضوع قديم جرت فيه الألسن كل مجرى وقتلته بحثا ونظرت فيه الجهابذة عندما إنطلقت النهضة فى أواخر القرن التاسع عشر الى اليوم وقلبته تقليبا وانتهت الى استنتاجات وتوصيات خطيرة لم تسمح لنا بأن نتقدم الى يومنا هذا بلغتنا وان نفرضها على العالم كلغة علم أو لغة أدب أو لغة فلسفة •

وبعبارة أفصح هل سمعنا فى أيامنا هذه بعالم عربى قدم اختراعاته واكتشافاته باللغة العربية ؟ وهل سمعنا أن نظرية من النظريات الفلسفية

(*) هذا ملخص محاضرة كان من المزمع أن ألقيها فى هذه الأيام ولما تعذر ذلك آثرت إطلاع القراء عليها لأنها تدخل فى المشاغل اللغوية التى يعانيها بعض الكتاب التونسيين الواعين للغتهم •

اكتسحت عالمنا الحاضر وهى نابعة عن فكر عربى وزاحمت الماركسية والوجودية وحتى الماوية وغيرها من الفلسفات ؟ وهل سمعنا بأن قصة أو ديوانا من الشعر باللغة العربية صار بالنسبة لمثقفى العالم الشغل الشاغل ؟

أنا لم أسمع الى يومنا هذا بذلك ؟ سمعت بكوبا طاوأستورياس وسارتر وغيرهم تكتب فيهم المقالات والكتب فى العالم أجمع ؟ وسمعت بمن يتحدث عن اقبال ونظرته الجديدة فى الاسلام المكتوبة بالانقليزية • تقول لى هناك ظروف متعددة سياسية واجتماعية الى غير ذلك••• أقول لك إن هذا ليس هو الموضوع إذ لى مثال صارخ هو أن البورقيبية التى هى نظرة فلسفية جديدة الى الوجود تريد أن تؤثر على الانسان كتب فيها الكثير واهتم بها فى العالم عظماء ولكنها تبحث لها عن لغة أو هى تريد أن تخلق لها لغة أو هى بكلمة أوضح بصدد خلق لغة جديدة لها ؟ لماذا ؟ لأن اللغة العربية الفصيحةما زالت رغم حيويتها وغزارتها وطاقاتها الكامنة فيها لم تحتضن روح العصر ولم تتجاوب فى كلماتها وعباراتها مع اهتمامات ومشاغل أهل العصر ولم يفجر منها أصحابها المعانى والآراء التى تهز وتقلقل الفكر العصرى • هذا كله يجعلنى أضع السؤال مرة أخرى وبكل تأكيد وأقول ما هو حظ اللغة العربية من التقدم الفكرى ؟ أو اذا أردتم أن أضع هذه الاسئلة الكبيرة الخطر : اذا سلمنا بأن العربية لم تصل الى ما وصلت اليه اللغات الحية الاخرى وهذا ظاهر بارز للعيان ، فما هى العوائق التى صدتها عن ذلك ؟ وهل هى فى امكانها أن تحمل رسالة من جديد تشع فى العالم وتكتسح العقول وتستهوى القلوب ؟ وما هى الشروط التى يجب أن تتوفر لتقوم بدورها الريادى كما كانت من قبل العمود الفقرى لرسالة من أنبل الرسالات وأكبرها تأثيرا فى مصير البشرية ؟

ولكن قبل ذلك ما هو التقدم الفكرى وكيف أتصوره مرتبطا باللغة ؟ وهل هناك تقدم فكرى بالنسبة للبشرية ؟

ما هو التقدم الفكرى وما هى علاقته باللغة ؟

كثير من المفكرين يشكون فى أن البشرية يمكن لها أن تتقدم فكريا الى جانب تقدمها التقنى والتقنولوجى ويعتقدون أن الانسان هو هو فى مواجهته لأهم القضايا الخالدة التى تشغل باله من خير وجمال وحق ، وأن كل شىء قد قيل فيما يخص منزلته فى الكون ومصيره وأن لا جديد فى تصرف الانسان إزاء الحياة والموت ، والبقاء والخلود ، وان غاية ما يقدر عليه إنما هو ايجاد لحن

جديد لنغمة واحدة وإضفاء ثوب قشيب على جوهر واحد وإكساء لون طريف على هيكل واحد ٠

هذه النظرة بما فيها من صحة ظاهرية هى خاطئة ما من شك اذ غرها ما فى الحديث عن الانسان من ترديدات وترجيعات تكاد تكون واحدة والحقيقة أن الذى يجمع بين كل هذا هو الانسان ٠ ذلك أن التسليم بهذه النظرة هو التشاؤم بعينه وهو قطع لكل أمل فى تقدم البشرية وتحجير لها وتحنيط لأقدس قيمها ٠ بينما نحن نعرف أن جوهر الانسان يتغير من فترة الى فترة ومن عهد الى عهد وتتغير بحسبه نظرته الى الكون ويتطور فنه وأدبه بمقتضى تطور أساليب حياته وأسباب عيشه ٠

هذه النظرة الاستقرارية للفكر البشرى عاشت عليها الحضارة العربية الاسلامية قرونا وقرونا فآمن الفكر العربى الاسلامى بأن كل شىء وجد وأن الاسلام لم يفرط فى شىء وبذلك آمن أن لتفكيره حدودا وأغلق على نفسه أبواب الاجتهاد الصحيح الخلاق إلا فى فترات قليلة نزرة لم تؤثر التأثير الكافى ، وانكمش يجتر قيما أصبحت خاوية لا تتماشى مع الروح الحقيقية للاسلام ٠ ولقد أثرت هذه النظرة على الفن والادب وحنطته تحنيطا وقتلت فيه روح الجدة والتطور والتقدم ورددت قولة عنترة الجاهلى :

« هل غادر الشعراء من متردم »

ألا بئس ما رددوا !

ولما نهض القوم من سباتهم ، أو شبه لهم أنهم نهضوا ، نادوا باحياء مجد اللغة العربية وراحوا يقلدون الفحول من الشعراء والعباقرة من الكتاب ويرجعون على حد قولهم للغة صفاءها القديم ومتانتها المعروفة واعجازها السليب ٠

ألا إنهم أخطؤوا نهضتهم ! لأنهم أخطؤوا التقدير ولأنهم لم يفهموا علاقة اللغة بالتقدم ٠ وظنوا أن اللغة العربية عندما قدرت فى القديم على حمل مفاهيم جديدة بصورة من الصور هى قادرة وهى على تلك الصورة أن تقوم بنفس الدور وأن تفصح عن معان جديدة طريفة متماشية مع التقدم الفكرى فى القرن العشرين ٠

ذلك أن التقدم الفكرى بالنسبة الى هو هذه الملكة الموجودة فى الانسان لتجديد نظرته الى الكون فى مختلف مشارب الحياة بالاستناد الى كل ما يجد فى ميدان العلم والاجتماع والاقتصاد والسياسة والثقافة بصفة عامة أو بكلمة

أدق بالانصهار فى حضارة عصره كلا متكاملا ٠ فترى حياته المادية اليومية المعتمدة على أحدث الاختراعات والاكتشافات لا تناقض تفكيـره وحكمـه فى الاشياء بل هى تكيفه بحسب مدى تأثره بالعصر وعمقه فيصبح اذا هو قدر على أن يكون منطقيا مع نفسه إنسانا آخر قد اكتشف أبعادا أخرى من التفكير وأشرف على عالم آخر كان بالنسبة اليه مجهولا وكان فكره عن استشفـافه كليـلا ٠

فلا تقدم فكريا إذن اذا كان المأكـل والمشـرب والملبس والمـركب يعتمـد الاكترونيك وكان السلوك سلوك من يركب الناقة ويلبس العباءة وكانت اللغة لغة من لم ير طائرة ولا سمع بمذياع ولا عرف تلفزة ٠

كذلك فان التقدم الفكرى لا يمكن ان يتم إلا اذ وجد فى اللغة قاعدة يرتكز عليها اذ هى عمدته وعـدته ٠ فاذا وجـدها ضعيفـة قـاصرة عن أن تحمـل مقتضياته وتستجيب لدوافع الحركية الموجودة فيه اختل هو بـدوره وانعـدم تماما ٠ فلا تقدم عند ذلك ولا تفكير ولا تقدم فكريا ٠ كالجسم اذا هو نما وأفرط فى النمو ولم يجد إلا قلبا ضعيفا غير قادر على تحمل بـدن بالغ فى الخصب ، اعتل وتداعى الى الفساد اذا لم يتداركه صاحبه بالعلاج والتعهد ٠

هذا بالضبط ما قام به رواد النهضة العربية الإسلامية اذ هم فهموا ما من شك مقتضيات العصر الحديث ولكنهم حافظوا على اللغـة القـديمة وتمسكوا بعروبيتها (*) المختلفة المظاهر فى الحقيقة وأعرضوا عن كل محاولة جـذرية لجعلها تتماشى مع تقدمهم الفكرى هم بالذات ٠ والأمثلة كثيرة فى هذا الباب ٠

الخلق الادبى والتقدم الفكرى واللغة :

فلنا فى تونس مثلا الاستـاذ محمـود المسعـدى الذى يمكن أن نقول إنه احتضن عصره وفهم تياراته ونفذ الى خباياه فهو متقدم فكريا ولكنه رغم ذلك اختار فى كتاباته لغة الازدهار العربى الاسلامى القديمة التى حملت مفـاهيم جديدة بالنسبة لذلك العصر ولكنها ، وهى على تلك الشاكلة ، غير قادرة على ان تحمل ما جد فى القرن العشرين من تطور مادى ٠ فنحن أمام تناقض غريب : مفكر له من قوة التفكير والاستطاعة على هضم المفاهيم الجديدة ما يجعله قادرا على الخلق والابتكار وهو مع ذلك يستعمل لغة قديمة فيتضاءل بطبيعة الحـال مفعول ما يريد أن يكتب وتضيع الجدة الممكنة الكامنة فى المعانى التى لم تفتقها

(*) هنا استعمل لفظة عروبية التى وردت مرة واحدة فى مقدمة ابن خلدون تحاشيا من لفظة عروبة التى اصبحت تدل على مفاهيم سياسية بعيدة عما أقصده ٠

الكتابة وطغى عليهـا الأسلـوب ويتـلاشى التـأثير المنتظـر رغـم الـروعة البـاقية (*) ٠

وكان خوفه من أن يصير أدبه من قبيل الصناعة هو الذى حـدا به الى أن لا يفكر فى اللغة وأن يعتقد مسلما أن الفكر النير يفـرز بطبيعـة الحال لغـة مناسبة له أو هو رأى أن العربية فى صفائها يجب أن تعود الى عهود ازدهارها فاعتنق بعفوية نثر العباقرة من كتابها ولم يجهد نفسه كثيرا فى البحث عن لغة تلائم تفكيره وتخرج به عن الرواسب القديمة (**) ٠

بينما نحن نعرف أن كل مفكر أو أديب يريد التـأثير فى غيره وآمـن بأن له رسالة يؤديها أوجـد لغـة خاصة به وقدها على قد تفكيره بعد وعى وعناء وجهد ٠ ولنا أمثلة كثيرة فى الادب العربى ٠ فبعد أن ردد شعراء الجاهلية أن القدماء لم يتركوا للمحدثين من المعانى ما يمكن أن تعد جديدة اذا بالرسـول محمد يسفه احلامهم وينزل القرآن وفى طياته آراء جريئة طريفة ونظرة الى الوجود ما كان ليحلم بها عربى قبله ولكنه لم يهمل الوجه الآخر المتعلـق باللغـة ٠ فخلق لغة هى ليست شعرا ولا نثرا هى القرآن ٠ وكذا العباقرة من الشعراء والكتاب فانهم يهتمون بهذا الجانب الخطر الذى بدونه لا يستقيـم تفكيـر ولا يلبس الثوب الملائم له ٠

ونحن نعلم أن المجددين فى الادب العربى هم الذين لم يقفوا موقف الاعجاب فقط من الآثار المتقدمة بل هم الذين تحدوا أسمى ما جادت به العربية ٠ فمنهم من جاهر بهذا التحدى كالمتنبى والمعرى الذى قال :

وإنـى وإن كنت الاخيـر زمـانه ~~~ لآت بمـا لـم تستطعــه الأوائــل

ومنهم من لم يجاهر به ولكنه أضمره ٠

فما بالنا نحن إذن نعتقد عن خطأ أن التفكير القوى يفرز بطبيعـة الحـال وبصفة عفوية لغة ملائمة له بينما من المسلم به أن كل خلاق فى ميدان الكتابة لا بد أن يكون قبل ذلك قد وعى لغته وتفهمها وعجنها عجنا وفككها تفكيكا ثم قصد أن يتجاوزها وأن يخلق منها كائنا جديدا يجسم فى مضمـون العبـارة

(*) لى عودة الى هذا الموضوع فى مستقبل قريب ٠

(**) قد يظن البعض أن المشكل هو مشكل ازدواج اللغة وأن هذه الظـاهرة لا تنطبق إلا على من حذق لغة أجنبية عن العربية ٠ والحقيقة أن الكثيرين من ذوى اللغة الواحدة الناطقين بالعربية والكاتبين بها والمتفتحين على عصرهم تجدهم يعانون هذه الآفة ويحسون بأن هناك تفاوتا بين مستوى تفكيرهم ولغة الكتابة عندهم ٠

المكتوبة كل تفكيره بما فيه من معان وخلجات وحرارة ونبضات تنفسه . أليس الفرق بين الخلاق القدير في ميدان الكتابة وبين صاحب القلم هو أن يستطيع الاول تضمين كل ما يجود به فكره في لغة مكتوبة تامة كالنوتة بالنسبة للموسيقى بينما الثاني يعجز عن ذلك ولو كان تفكيره قويا جبارا . فكم من أستاذ بث تلامذته جدة افكاره وغذاهم بالجديد من النظريات ولكنه عاجز عن إكسائها الثوب الفني فيأتي من تلامذته من يقوى على ذلك (*) .

وهذه هي بالضبط مصيبة الشعر العربي المعاصر سواء كان عموديا أو حرا أو منثورا . ذلك أن الشعر في القديم كان ينشد . ومن الذى يمكن له أن يتصور اليوم كيف كان ينشد طرفة معلقته أو أبو العلاء لزومياته أو أبو العتاهية زهدياته ؟ لا أظن أن أحدا قادر على ذلك ؟ غير أن الخليل بن أحمد حافظ بالاوزان التى استنبطها على موسيقى الشعر كما أن التطور الذى طرأ على الخط أعان على تصور ذلك أضف اليه السماع المتوارث . كل هذا أعطانا صورة مكتوبة تكاد تكون صادقة . واليوم أصبح الامر أخطر مما يظنه البعض ، إذ كثيرا ما ينصت المستمع المنتبه الى شاعر وهو يلقى شعره فيطرب له ثم هو يفاجأ عند قراءة ذلك الشعر بعد يوم أو يومين بأنه أخطأ التقدير . ولكن الحقيقة هو أن الشاعر لم يستطع أن يضمن شعره وهو مكتوب حرارة الالقاء وتموجات الصوت وإيحاءات الوقف والشاعر الموهوب هو الذى يكون قادرا على ذلك ولا يحتاج إلى أن يكون الشاعر حاضرا دائما أمام القارىء بصوته ليكمل ما عجز عنه المكتوب . لذا فان الامر يكون أهون بالنسبة للذى يختار الشعر العمودى لانه قد وجد أمامه على الاقل عدة مكتوبة كاملة ما عليه الا أن يتأثر بها ويحاول أن يفرغ فيها معانيه بالقدر الذى يتيحه له خياله وتجود به لغته . ولكن الشاعر الذى يريد الخروج عن ذلك ويتوق الى تحدى لغته نوعا ما فهو يحتاج الى التجديد المطلق والى صنع قالب مستوفى يتضمن كل ما توحيه له به موهبته ويقتضى منه أن يضمنه فيما لديه من عدة يمكنه منها الخط الذى يعتمده . أما بالنسبة للشعر المنثور فالمسألة أعوص وأكثر تعقيدا . إذ من هو الشاعر العربى الذى ضمن كسان جون برس St John Perse مثلا شعره المكتوب جميع الايقاعات والموسيقى التى أرادها ؟ على كل فالامر محير .

(*) أذكر على سبيل المثال ابن رشيق وأستاذه النهشلي . والجاحظ وأدعاء من قال إنه لم يعبر إلا عن آراء كانت شائعة في عصره . ألم يحسن التعبير عنها ويكيفها ويطورها بقوة تفكيره وجديد لغته ثم ألم يعطها من فيض نفسه حرارة إيمانه ودفق الخلق فيه حتى صارت قطعة منها ؟ فبرزت المحاسن واختفت العيوب .

حركة لوعي اللغة :

ألا ترى الى الرئيس بورقيبة كيف أن الامر حيره من زمان بعيد وأوجد لنفسه لغة هي ليست بالعامية ولا هي بالفصحى بل هي لغة بورقيبية اجتهد في أن يصوغها لغة حديث لانها أكثر ابلاغا وأشد وقعا في الجماهير الشعبية التي لم تتمتع بنعمة التعليم • ولو فرضنا أن الرئيس بورقيبة كان يتجه بنظرياته في السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة الى شعب انتشرت فيه القراءة لأوجد لغة كتابة لا أشك في أنها تكون لغة متميزة عن غيرها لها خصائصها وأكثر من هذا تكون متجاوبة مع محتواها لان صاحبها يكون قد وعي لغته وصنعها صنعا ورفض أن يعيش على لغات الآخرين (*) •

لهذا فان الذى أخطأه رواد النهضة في هذا القرن يجب أن لا نخطئه نحن أى يجب علينا أن نعقل لغتنا ونعيها الوعي الكامل بطريقتين اثنتين :

ـ الاولى تركز اهتمامها على البحث في اللغة البحث العلمي الصحيح بالاستناد الى فقه اللغة الجديد مستعينة بما قدمه فقهاء اللغة الاول من أعمال جليلة في هذا الباب ولكنها منحصرة في زمن معين ، من سوء حظ العربية أنه فاض على الازمنة الاخرى وذلك مع تقديم الحلول الكفيلة بتعصير كتابتها (**) •

ـ والثانية تتعلق بالخلق ومهمتها هو أن تقوم في أول الامر بعملية هدم صارخة للغة حتى يشمل الوعي جميع طبقات المثقفين ويعتبروا أن قضية اللغة هذه ليست قضية ثانوية وبالعرض بل هي أصلية يتعلق بها مصير الفكر العربي عامة ، والفكر التونسي خاصة • ثم يأتي الحض على بناء اللغة من جديد باجتهاد خاص من كل خلاق قدير •

وبكلمة أوجز فان القيام بحركة وعي اللغة على نطاق واسع أمر يفرض نفسه اذا أردنا حقيقة لأمتنا الازدهار الشامل وخاصة الازدهار الثقافي الذى هو مفتاح كل تقدم ونهضة أصيلة •

(*) لقد استمعت في مهرجان الشابي الى كلمة ارتجلها الاستاذ جاك بارك باللغة العربية ، واستمعت قبل ذلك الى محاضرة كتبها بالعربية (نشرت بالفكر السنة 5 ـ ص 408) وتبينت مدى جدة اللغة التي استعملها • فهي عربية مفهومة ما من شك ولكنها في جملها وتراكيبها ونفسها لا تشبه أى نمط من أنماط الكتابة العربية القديمة والحديثة المتوخاة في البحوث والدراسات • وقد يكون من الطريف جدا أن يجرب الاستاذ بارك الخلق باللغة العربية • وعلى كل فان ما سمعته منه يدل على أنه وعى هذه اللغة وعيا تاما وحاول السيطرة عليها وإخراجها في ثوب يناسب تفكيره ومناحي تكوينه •

(**) انظر ما كتبته حول تيسير الطباعة العربية في الاعداد السابقة •

الاسلام والتقدم الفكرى واللغة :

لذا فالعلاقة بين التقدم الفكرى من جهة واللغة من جهة أخرى كفاعل ومحرك ومؤثر لا كأداة ووسيلة فقط للابلاغ بين واضح • ومن البين الواضح أيضا أن الاسلام ، بقطع النظر عن رسالته الدينية الخالدة ، ينبنى قبل كل شيء على روح نزاعة الى التقدم الفكرى ويدخل فى السياق الذى ذكرته سابقا • إذ من المفروغ منه أن الاسلام اعتمد أولا وبالذات على النص القرآنى أى على اللغة القرآنية وقد وضحت (*) كيف أن نزول أول كلمة قرآنية وهى « **اقرأ** » دليل واضح على القفزة الكبرى التى يريد الاسلام أن يقفزها التفكير الجاهلى الخاضع « لسلطان الذاكرة » و « للذاكرة المنشدة » وبينت علاقة كل هذا بالكتابة وحددت نوعية هذه اللغة الجديدة وسيطرتها على العقول والقلوب ومفعولها فى نشر الاسلام وبلوغ الدعوة •

فالقرآن « حدث لغوى » قبل أن يكون حدثا دينيا وماذا يكون تأثير الاسلام وانتشاره لولا الكتاب العزيز • فظاهر اذن علاقة الاسلام بالتقدم الفكرى وباللغة وظاهر أيضا أن فهم الاسلام تحت هذه الاضواء يخرجنا من الغرق فى جزئيات تكاد تكون من قبيل الخرافة وتحررنا من بعض القيود التى اضطر الدين الاسلامى فى ذلك العصر الى ضربها على سلوك الناس ازاء ربهم وأمتهم وأنفسهم قصد تعميق دين ما زال فى ذلك الوقت لم يتغلغل فى نفوس الجاهليين •

فاذا فهمنا أن الرسالة المحمدية هى قبل كل شيء دفع لاينى الى التقدم الفكرى فى أوسع معانيه أمكن لنا أن ننزع عن أنفسنا ، وضميرنا مطمئن ، كل ما من شأنه أن يخل بتقدمنا وبفوزنا وبمكانتنا ضمن أمم العالم وأمكن لنا أن نرمى بكل ما يتنافى والحياة العصرية مستندين الى الروح الاسلامية الحقيقية التى ذكرت والتى كيفت كل بلد عربى بحسب طبيعته ومقوماته الأساسية وأتاحت له الفرصة بأن يمتن شخصيته ويؤكد سيادته ويبرز قوميته • وختاما فان الاهتمام باللغة العربية يدخل فى نطاق رغبتنا فى التقدم الفكرى مع التمسك بالاسلام الاصيل وجوهره الحق •

فلا تقدم فكريا الا بوعينا للغتنا الوعى الصحيح وبفهمنا للاسلام الفهم الصائب المتحرر •

البشير بن سلامة

68/11/13

(*) راجع فى العدد العاشر ـ جويلية 1968 المقال تحت عنوان : تفاوت بين اكتمال اللغة وبدائية الكتابة خاصة الصفحات 6 و 7 و 8 •

تقولين لي

شعر : جعفر ماجد

تَقُولِين لِي : يَا حَبِيبِي فمَاذا   تقُـولِيـنَ لِـي بَعْـدَ هَـذا النداء ؟
تَقُولِين لِي : أنتَ حُلْمٌ لذيذٌ   بـغَيـرِ ابْتِـــداءٍ وَغَيـرِ انتِهَـــاءِ
تَقُولِينَ لِي أنْتَ دَقَّاتُ قَلْبِي   وَحُبُّكَ فِي أضْلُعِـي كَالْهَـوَاءِ
تقُـولِين لِـي سوْفَ نَسكُن بيتًا   عَلى نَجْمَـةٍ من نُجُـوم السمَاءِ
حِجَـارَتُهُ جَوْهَرٌ وعَقِيــقٌ   وَأسْتَارُهُ مِنْ خُيُوطِ الضِّيَــاءِ
فتحْرسُهُ الشَّمس عِنْد الصَّبَاحِ   وَيَحْرسُهُ البَدرُ عِنْدَ المسَـــاء
وَأبْقَى طَوِيلاً عَلَى سَاعِدَيْكَ   وَلا نَحْسِبُ الوَقْتَ عند اللِّقَـاءِ
تقُولِـينَ لِـي أمْ تقُـولِين هَذَا   لِـكُلِّ غَبِـيٍّ مِـن الاغْبِيَــاءِ ؟

* * *

أنَا كُنْتُ فِي رِحْلَةِ السندبَـادِ   أفتِّـشُ عَـنْ شَـاطِيء الاغنِيَـاءِ
لأحْمِلَ مِنْـهُ هَدِيَّة حُــبٍّ   تَـكُـونُ كَمُعْجِـزَةِ الانْبِيَــاءِ
فلَمْ ألْـقَ الا جزيـرَةَ عِطْرٍ   فَجِئْتُ بِهَـا خُفْيَةً فِي إنَــاءِ
وَقُطْـرًا مِنَ الارْضِ لامَـاءَ فيه   فَجِئْـتُكِ مِـنْـهُ بِـقَطْـرَةِ مَـاءِ
وَأصْدَافَ بَـحْرٍ بِغَيْرِ قَرَارِ   وَنَشْـوَةَ خَمْـرٍ بِغَـيْـرِ احتِسَـاءِ
لألْقَاكِ بَاسِمةً فِي طَـرِيقِـي   بـأجْمَــلِ ثَــوبٍ وَأبْهَى كِسَـاءِ

وَلَكِنني لَمْ أجِد غَيرَ حُبٍّ   يَتيمٍ على مَقْعَدٍ مِن بُكَاءِ
وذِكْرَى تُلاحِقُنِي مِثْلَ ظِلِّي   وتَعْصِفُ حَوْلِي كَرِيح الشِّتَاءِ
وَشَوْقٍ يُدمّرُنِي رغم صَمْتِي   فَأنهَارُ فِي الصَّمْتِ مِثْلَ البِنَاءِ
عَذابِي أنَا فِيكِ لَمْ أحْتَمِلْهُ   ولَمْ أحْتَمِلْ طَعْنَةَ الكبريَاءِ
تَعَوّدتِ بالغَدْرِ فِي كُلِّ حِينٍ   فَلَمْ تَفْهَمِي اليَوْمَ معنى الوفاءِ
سَيَلْتَئِمُ الجُرْحُ يَوْماً وأنْسَى   وأضحَكُ يَوْمَئِذٍ مِن غَبَائِي
وأعْلَمُ أنكِ لَمْ تُخْلِصِي لِي   لانَّكِ تَهْوَينَ طَعْمَ الدِّمَاءِ
وأنَّكِ أحْبَبْتِنِي مِثْلَ غَيْرِي   ومَا أرخص الحُبَّ عندَ النِّساءِ !

ج. م.

جانفي 1968

هل نحن عرب ؟

« خواطر حول الاصالة ومقوماتها »

بقلـــم : الطاهر اللبيب

لم الحديث عن موضوع كهذا فى هذه الآونة بالذات ؟

لا أقول ان الشعور بأهمية هذا الموضوع يشتد فينا كلما وجدنا أنفسنـــا وجها لوجه أمام التحديات فى بلد أجنبى ، وأن هذا الموضوع تراه العين ـ هنا ـ فى أعين الناس وعلى جباههم ، وتسمع الاذن ألوف الالسن تتحداه مدحا وذما ، وأنه يلمس فى قبضة العربى المهجورة ويشم فى الانفاس المكدودة ومع الدخان تصعده الاجواف المتخمة راحة وتنعما ويذاق فى برتقان « حيفا » وموزها ! ٠ فهذه عوامل شخصية قد لا تتجاوز التعابير العاطفية ٠ ولكن الدافع الاقوى حاجة العربى اليه أينما كان فى مرحلة متأزمة من مراحل تاريخه ٠

شرط واحد اذا وتعيش الحالة : أن تكون عربيا ٠ وقد يبدو ذلك هينـــا ميسورا لما اصبح عليه هذا اللقب من ابتذال لم يعهده من قبلنا أحد ٠ فالمفهوم الجديد للعروبة « وضعية ـ غربية ـ استعمارية » تماما كوضعية « اقليدس » الرياضية ، وقع التسليم بها فى ظروف معينة واتخذت نقطة بدء لكل ما حل بالعالم الغربى من فقدان الذات وموت الاصالة ٠ وقد نجح الغربيون بعد ذلك فى ايهامه بأن المسلك الوحيد لوجود هذه الاصالة المفقودة لا يتأتى اتخاده الا باكتساب مفاهيم سبقوه الى تعريفها تعريفا لا يخضع لمعطياته الزمنية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ٠ ثم انهم شدوا ربطها الى الظواهر المادية حتى لم يعـد بد الى مراجعتها ٠ بل وأصبحت صورة ثابتة مسلطة يقيم بالرجوع اليها قيمه ويعدل أعماله ٠ وليس هذا ممكنا دون الشعور بعقدة كانت عقـدة انكمـاش وانفراد ، ثم استحالت الى عقدة انحلال وذوبان ٠ وهى فى كلتا الحالتين مرضبة افقدت العربى حاسة الواقع ٠ فاذا الخيال عنده واقع يمكن أن يكون أساسا لبناء هياكل اجتماعية واقتصادية ٠ وعن هذا تتولد ـ طبعا ـ صور العمل الوهمى ٠ العربى انسان يعمل حالما أو يحلم عاملا ٠ والحالة الاولى أعـــم وأقرب ٠ هو كذلك الذى يقوم بدون أى وعى منه بأعمال حركية أثناء نومه ينفيها عنه حال يقظته ٠ وهذا ما يفسر تنكره السريع لمحض أفكاره وأعماله ٠ وقد يكون فى ذلك صادق العزم والطوية لانه لا يعى تمام الوعى أنه يعيش فى مزيج أسطورى أقل ما يقال فيه : انه عالم أشباح تتضارب فيه الصور تضاربا

منكرا وتنعدم فيه الطمأنينة الى الذات • لان هذه الصور ملزمة تتوارد عليه فى اتجاهين متعاكسين : ماض بعيد لم تعد صلته به حية وفى مستوى الشعور فهى اذا فارغة من قوى الزمن المحركة ، ومستقبل أبعد اختار له من الاسماء : الغرب • واذا كان مستقبل العربى ان يتمغرب ، فهو فعلا أبعد ، لان التفكير العلمى لا يحتمل هذه الامكانية حال تنبهه الى العوامل التاريخية والطبيعية •• أليس معنى هذا أنه ليس لعربى اليوم حاضر • أى أنه ليس فى الحاضر عربى؟

لاشك ان هذه الحقيقة لا تستوجب غير شيء من الموضوعية ليسلم العقل بها تسليما لا يقبل الرد • على أن مرارتها من ظواهر المشاعر المتصلة رأسا بأبعاد زمنية « عمودية » • وهى الرمز الوحيد تقريبا للتعبير عن وحدة الحنين الى مثالية سلفية • تلك حقيقة أو هى على الاقل واقع لان « عربى » اليوم فقد أصالته التى تميز عن غيره من أجناس البشر • والاصالة أساس كل تعريف : أن يكون الشيء مساويا لذاتــه •

وجدير أن يزال بعض الالتباس : الاصالة لا تعنى رجوعا مباشرا الى الاصل لان لهـا محـور اتجـاه زمنى خاضعـا لقـانـون التطـور • فـلا تثبـت الا بموازاته نحوا وايقاعا • والا فهى خارج الزمن • وفى ذلك افراغ لها مـــن مقوماتها الاساسية وتقصير فى أبعادها وجعلها قيدا حابسا ومصدر اقلاق وعقد وهو فعلا ما انتهت اليه بعد أن باعد بينها وبين صاحبها ما لا يقل عن سبعة قرون • وان فشلت نظريات الاصلاح المعروفة فى القرنين الاخيرين فذاك لانها مهما قويت لم تقو على معاكسة الزمن فى رجوعها الى ما تم اتلافه أو تخليفه • ولقد تنبه محمد عبده أكثر من استاذه الى أن نقطة البدء يجب أن تكون الفرد • وهذا بعض فضلــة •

فالاصالة من هذه الوجهة قوة كامنة يجب أن تحضر فى الذات حضورا حافزا هى وعى قبل كل شيء وليست بحال أن ينام رئيس الدولة فى ظل شجـرة ويوقظه السفراء أو أن يملك قطيعا من نساء بدليل أن « ما جاء على أصله فـلا سؤال عليه » • فهذا أيضا نفى للزمن • والعبقرية لا تصنع التاريخ بل تعرف اتجاهه • ولا أحد يشك اليوم أن فكرة « القديم » بمعنى الثابت الخالد المقـرر نهائيا أوجبت جمودا مشلا لنفس السبب • ومن اساتذتنا من كان يقول جادا مجددا : التاريخ هو ما نصنعه الآن (1) • فالاصالة اذا كاطلاق قار لا يتعلق بالزمن تعريف لا يصح الا اذا اعتبرنا الحاضر نهاية التاريخ • وهو اعتبارخيالى

---

(1) الاستاذ بوحديبه : Revue Tunisienne. N° 4 - 1965 - P : 21

مردود فرضا ، أى بالمعطيات العقلية · انما هى موقف من التاريخ ومعيـــار لمراجعته لانها قوة كامنة فى الذات (بالمعنى الفيزيائى للكلمة : أى قوة لم تصرف بعد) · على أنه لا يكون لاحد موقف الا بالفهم ولافهم الا باكتساب أدنى · وهذا ما لم نتفق عليه حتى الآن ·

* * *

فمن البديهيات ان البحث الايجـابى يقتضى ايمانـا بوجـود مـا نبحث عنه والا فلن نتجـاوز عمـل « سيـزيف » الابـدى · لهـذا وجب التسليـم بمعطيات أولية عضوية طبيعية لم تكن محل نقاش لولا طوارىء التاريخ المدلس وهى فى اعتقاد النزهاء جد ضرورية الى حد أنه لا يمكن الاصلاح بدونها لانها من عناصر التعريف المبدئى والنهائى وشعار كل أمة جديرة بهذا اللقب · فهى بالتالى عامل انسانى مشترك قد يتفاوت احساس الفرد به تبعا لمفهوم الحرية عنده ، ولكنه اساسا روح الجماعة المنسقة الموحدة · هذه المعطيات هى اللغة والدين والوطنية · وليس لاحد أن يدعى اختراع هذا الثالوث ، لان أقدم المجتمعات اهتدت اليه تلقائيا فكان المكيف لهياكلها المحرك لدواليبها · بل وكان فى كثير من الاحيان المجدد لنظمها الاقتصادية ايضا · (ليغفر ماركس !) · لهذا كان كل من دعا الى وحدة قومية استند من أقواله وأفعاله (بقطع النظر عن صدقها) الى هذه الدعائم الثلاث ، وان كان يكسبهـا ــ حسب الظـروف والملابسات ــ ألوانا خاصة لتيسير التجاوب · كأن يلح على جزئية معينـة لهـا مساس مباشر بما يعالجه من قضايا ساعته ·

وقد حاول أخيرا مولود قاسم بالرجوع الى أفكار الفيلسوف الالمانى «فيشته» « Fichte » أن يحلل فى محـاضرة صـارخة (1) أهمية هذه العنـاصر فى حياة الامم عامة والعربية خاصة والجزائرية على الاخص · وهو وان أحسن اختيار المثل كان بامكانه الرجوع الى نداءات متعددة من صلب تاريخنا · على أن اعطاءه الاولوية للغة يعلله كونه جزائريا · فليس هذا من قبيل الصدفة لاننا نعتقد أنه لا سبيل الى المفاضلة بين العناصر الثلاثة لارتباطها وتفاعلها · أما الفصل بينها فلا يكون اراديا ابدا · فهو اما ارغام من الخارج كما فعـل المحتلون بغية التفكيك القومى واما ارغام داخلى لتنفيذ مشروع شخصى · وفى كلتا الحالتين تكون المجموعة المعنية بالامر رهن التصرف المفروض · وكلنا يعرف مثلا محاولات الغرب والمتمغربين لقطع الصلة بين العروبة والاسلام · وهى ظاهرة غربية أفضى اليها فشل الكنيسة المتمثل فى اضعاف سلطتهـا · مما جعلها تلتجىء الى مفاهيم جديدة تنزع الى تعميم يكتسى شكلا انسانيا ولكنه دوما مسوم بسمتها صادر عنها وراجع اليها ·

---

(1) المجاهد · بالفرنسية ــ ابتداء من 27 سبتمبر 1968

ومما لا شك فيه أن مفهوم العروبة شديد الارتباط باللغة العربية . فالعرب بالتعريف النهائي لا التاريخي ناس يتكلمون العربية . فهي من عناصر الشخصية الاساسية ورمز لتكامل الذات واستقرارها . فاهمالها اذا اعلان باستحالة التعاطف بين افراد الامة الواحدة لان اللغة ليست مجرد كلمات بل هي جملة رموز يتحد في فهمها أهل تلك اللغة ويجدون خلالها أنفسهم لما حوته من أفكار ومشاعر وكل انعكاسات الثقافة (بالمعنى الانتروبولوجي للكلمة : جملة المعارف والمعتقدات والفن والاخلاق والقوانين والعادات وكل الامكانيات الاخرى التي يكسبها الشخص كعضو في مجتمع معين) . اللغة من هذه الوجهة شرط واجب من شروط الامتزاج الاجتماعي . فهي التي تشير على الفرد بتعديل مواقفه وتنسيقها حسب ما يفرضه المحيط . ولما كان لهذا الامتزاج دافع تاريخي فاللغة الاصلية هي القادرة وحدها على استمراره والمحافظة على توازنه وانسجامه . لان ما نسميه عالم الواقع مقام لا شعوريا على نسيج لغوي خاص بنا . ولعل هذا الرأي كان ولا يزال يدفع علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي والانتروبولوجيا الثقافية ومن لف لفهم الى دراسة اللغة كوسيلة اساسية لفهم المجتمع الذي يتكلمها . واذا تنازعت لغتان في مجتمع خاصدقهما أشدهما تأصلا . ولو كانت الدراية بها أقل . وقد يبدو هذا عجيبا ولكن الاعجب منه أن يقدر أحد على اكتشاف عناصر الشخصية العربية خلال انتاج أوحديث لعربي بلغة أجنبية . لان هذه اللغة تفرض عليه أن يعدل من أفكاره ولهجته بل وحتى من حركاته عند الكلام . وهذه التجربة نعيشها يوميا في بلادنا . لهذا يعتبر تعويض اللغة العربية في التخاطب بلغة أجنبية مساهمة في محو أصالة العربي واعتراف بالتبعية وانفصام الذاتية . وهو ما يجعل السؤال التالي : لماذا انهزم العرب ؟ طرفة من طرائف هذا العصر .

وقد تنبه أهل الرأي في تونس الى خطورة الوضع وجدية الموقف . فكان مما تهتز له الامة قطعا قرار السيد احمد بن صالح القاضي باقحام العربية في جميع الكليات والمعلن ببدء مرحلة جريئة من مراحل التعليم . يضاف اليه ما جاء في تصريح السيد محمد مزالي : « **اللغة العربية من مقومات الامة التونسية اذا تلاشت وضاعت أصولها وقل أو صعب استعمالها ، فقد تلاشى جانب من شخصيتنا وضاع الامل في أن نتمكن من الحوار الحضاري مع العالم في لغتنا وبروح من عبقريتنا** » (1)

على أنه يبدو ممكنا تعريب بعض الفنون الجامعية التي لا تمتنع العربية في شكلها الراهن ، خاصة ما كان منها يتصل مباشرة بحياتنا القومية والاجتماعية

---

(1) عن « القنال » — الفكر عدد 1 — اكتوبر 1968 .

وهذا من شأنه ان ييسر الافادة بها والاستفادة منها • فعلم الاجتماع ــ مثلا لا حصرا ــ يدرس فى تونس بالفرنسية • وهو على ما عرفناه لا يكلف المعرب أى عناء غير الجهل بالعربية • وليس هذا عذرا فى بلد عربى • ثم انه ما دام مترنسا يحدو بملقنه الى التعريج فى أغلب الاحيان على ما هو فرنسى أو ما هضمه الفكر الفرنسى • ثم أليس هذا مأتى « الغربة » التى يشعر بها الطالب حال تخرجه لانه لا يجد فى مجتمعه تطبيقا عمليا لما تعلمه ؟ ان اللغة الفرنسية فى ميدان كهذا تخدم فرنسا أكثر مما تخدمنا • وفرنسا كغيرها من البلدان التى سبق ان استعمرت كانت ــ ولا تزال ــ حريصة على نشر لغتها • وبما أن مكانة الفرنسية فى بلادنا معروفة لدى الجميع ننقل فقرة تتعلق بالامبراطورية العثمانية عامة فى مطلع هذا القرن وتؤكد الشبه بين الماضى والحاضر : « **لقد قيل بحق ان من تعلم القراءة قد اجتاز أصعب عقبة فى حياته • هذا صحيح فى البلدان التى تكتب العربية ••• ان أرقى مكانة فى كل المدارس الاسلامية والمسيحية تحصلت عليها لغتنا الفرنسية • فللأطفال من هذه اللغة ست ساعات لمدة ثمانى سنين • وخلال السنوات الثلاث السابقة للباكالورية تعلم الجغرافيا وبعض المواد الاخرى بالفرنسية • وهذا يمثل أقل من ثلث ساعات التعليم •• وبفضل حب الوصول والقرآن للمعرفة ولاهلها تتمتع بسلطة لا مثيل لهــا الا فى الصين !** » (1) • ولما كانت اللغة حاملة للافكار موزعة لها فقد استطاع فرنسى أن يتحدث عن مصالح فرنسا الادبية فى الشرق فيقول : « **يوجد تحت حمايتنا وفى بعض مدارسنا اكثر من 110•000 تلميذ يتعلمـون لغتنـا ويتكونون حسب أفكارنا** » (2) •

المشكلة اذا مشكلة تطوير اللغة العربية وليست بحال مشكلة تعويض هذه اللغة بلغة أخرى • وليس هذا ممكنا الا بتغيير نظرتنا اليها واكتشاف ما يحببنا فيها • أن ندرسها أولا • أن نتحمل مشقة البحث عن حقيقتها • أن نعتـرف بوجودها حية • ان نؤمن بأنه فى امكاننا أن نجعل منها لغة المستقبل •

الاستعمال شرط واجب كبدء للتطوير : فمن كان يتصور أن اللغة العبرية وقد أهملها التاريخ منذ ألفى سنة ستبعث حية تسعى ، فاذا هى اليوم لغة اسرائيل قولا وعملا ؟ أتلك من معجزات موسى ؟ أبدا•ويكفى أن نرجع الى جزئية تاريخية تبدو عديمة الاهمية فى حد ذاتها لندرك بعض السر : أول عمل أراد تحقيقه مؤتمر « فينا » الصهيونى المنتهى يوم 10 سبتمبر 1912 تأسيس جامعة ومكتبة

---

(1) Ziegler - Journal de Geneve - 6 Nov. 1911
(2) le Temps - 29 Oct. 1912

ببيت المقدس لتلقين العبرية وتقريبها من النفوس (١) • لقد أدرك اليهود أن اللغة وسيلة لفرض وجودهم • وليس من قبيل العبث أن تعلو بعض الدكاكين اليهودية لافتات عبرية فى معظم أقطار الدنيا وفى الدول العربية بالخصوص • ان هذه اللافتات لا تدعو الى الشراء بقدر ما تدعو الى الاعتراف بلغة التوراة •

* * *

أما فى خصوص الدين فليس المهم هنا الدفاع عن الاسلام أو التمييز بين قديمه وجديده • لا ولا الجزم باحتياج الانسان المعاصر عموما الى اعتقاد ما ورائى يضيف الى وجوده المادى ابعادا تتجاوزه ويكسب حياته معنى كلما أعـوزه الجواب عن أسئلة حيرت معظم المفكرين والفلاسفة • فهذه نقط جدال تختلف نظرة الناس اليها تبعا لشعورهم بالطمأنينة الباطنية وتأثرهم بما اكتسبوه مما انتجه العقل البشرى حتى الآن •

كل ما يجدر ذكره هنا أن عربى اليوم يحتاج الى تزكية العنصر الدينى من شخصيته لابراز وجوده واستقلاله • لان اللغة وحدها لا تميزه تماما عن غيره • خصوصا بعد ما حدث من تشابك الثقافات ورواج اللغات فى العالم • كما أن الاصالة ـ ومن شروطها رغبة التميز التى لا تعنى الانطواء والانعزال ـ لا تتم الا بمقارنتها بما يخالفها • أى بالمجابهة والمواجهة • لان مجرى التاريخ شاء أن نبحث لا عن أصالة مطلقة ، وانما عن أصالة أكد ضرورتها موقف الغرب منا وموقفنا منه •

الموقف الاول يدعونا بأشكال مختلفة الى التخلى عن معطيات يجهلها ولاتربطه بها أية عوامل • من ذلك ما جاء فى آخر جملة من آخر كتاب ألف عن العـرب ويدعى الشمول والاحاطة : « ليس للثورة العربية الا أن تنمو خارج الاسلام ، لان (!) الطبقات الحاكمة ـ كما ينبه اليه مكسيم رودنسون ـ لن تتردد فى استغلال الدين الاسلامى لتقديس مواقفها الرجعية مستعينة بالقديم » (٢) • لقد حدث شىء من هذا ولا يزال يحدث • وهو تعبير عن الموقف الثانى ، موقفنا نحن • فمن حركات التحرير الفلسطينية ما تعلن أنها ماركسية لينينية • وقد ظهرت أخيرا صورة أحد أبطالها وبين يديه صورة ماوتسى تونغ كرمز للحركة (3) •• والجواب هنا واضح : هذه الثورة « العربية » اللائكية ليست عربية • ويضاف : العرب كما يريدهم هؤلاء ليسوا عربا • **الثورة نظرة جديدة الى العروبة والاسلام لا تخل عنهما** • يجب أن يثور العرب **لا لينين وتروتسـكى وماووقيفاره • فهؤلاء وليدو أوضاعهم •**

---

(1) Jérusalem - T : 2 - 1912-1913 - P : 590.
(2) René Kalisky - le monde arabe - T : 2 - P : 371.
(3) Paris Match - N° 1016

ولعل فشلهم يكون ذريعا لو كانوا عربا مسلمين وطبقوا نفس المبادىء والاساليب • فمن أصول التفكير الاجتماعى الواقعى ان ما هو ناجح فى بلد ليس حتما ناجحا فى بلد آخر •

ان المذاهب « الانسانية » الآتية الينا من الغرب لا تنفصل عن المسيحية • فهى أما صياغة لمعطياتها فى أشكال عامة متفتحة مغرية واما رد عنها وتخلص منها • وكلتا الحالتين جدال مباشر بين الانسان والمسيحية لا يصلنا الا وقد أخرسه الجزم • فاذا نحن نستهلكه جاهزا بما فيه من بذور دست عمدا أو بطبيعة الاشياء • ومن هذه الوجهة **يبدو العالم العربى الاسلامى حتى الآن فى طريق التمسح الخفى** يتزعمه من المثقفين من أطفأت فى نفوسهم واذهانهم أسطورة الغرب طاقة الاسلام كما سبق أن فعلت بالراديكاليين • ومنهم الشبان الاتراك الذين « **رأوا فى تقليد الغرب وسيلة للتخلص منه (1)** » • بين هؤلاء والعوام توجد طبقة عمياء من انصاف المثقفين الذين فقدوا التوازن ، فاذا هم مسلمون مسيحيون شرقيون غربيون شيوعيون اشتراكيون بعثيون قوميون ثوريون رجعيون يساريون يمينيون وجوديون فى آن واحد !

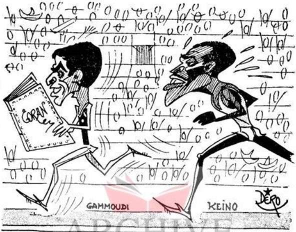
واعتبارا للحرية الفردية فى الاسلام لا يمكن ضبط العنصر الدينى اللازم مضمونا أو شكلا • ولكن الحد الادنى شعور المسلم بأنه مسلم مع اعتزازه بذلك وعدم تحرجه أمام النقد المسلط عليه الخارج جهلا أو تحديا • فذلك أقوى سلاح لحفظ البقاء الذاتى وللصمود امام الضغط • وهو أنجع وسيلة لمراجعة الدين نفسه ورفض ما يعرقل السير من مخلفات عصور الانحطاط وتزمت الفقهاء وتطرفاتهم • **الحب والغيرة أصدق داع للاصلاح الدينى** • اذ لاوجود للحياد بل لاوجود للموضوعية المطلقة فى الدين •

أما الوطنية فارتباطها بالاسلام أكيد • وكلنا يعرف ان « حب الوطن من الايمان » وأن الايمان من حب الوطن أيضا • فكثيرا ما تكون الوطنية دافعا قويا الى التشبث بالمبادىء الدينية والرجوع اليها • وهذا ما يظهر خصوصا عند الازمات • لكن الوطنية هنا لها مفهوم خاص • فهى تعنى أولا شعور الافراد بانتمائهم الى أمة متجانسة مهددة دوما وبلا انقطاع بشتى العوامل الداخلية والخارجية • وهذا الشعور بالفزع كفيل بزرع الطمأنينة لانه نداء الى الوحدة• والوحدة قوام التعريف • اى مرجع من مراجع الاصالة • وكلما تمكن منها الفرد كان معيار التعديل الذاتى أشد حساسية وأبعد عن التشويه والاضطراب

---

(1) نفس المصدر السابق • ص : 53

GAMMOUDI SURVOLTÉ
IL ÉTAIT BRANCHÉ SUR LE CORAN !



اعتراف مقنع : أصالة القمودى رياضة وقرآن

هذا المفهوم يجعل من الوطنية أعظم تراجيديا عرفها الانسان • وفى اعتقادنا أن العرب على تفتحهم لثقافات الاغريق لم يكتسبوا « الضمير التراجيدى » منذ البدء • خصوصا وقد أوجد لهم الفقهاء كل الحلول الممكنة فاستساغوها وبنوا عليها حياتهم ونظرتهم الى الدنيا • لهذا كانوا لا يفيقون غالبا الا اثر الصدمات فيكون التعليق وطنيا ! ويتاح للعالم أن يرى مشهدا من مشاهد «البسيكودرام» ولعل هذا ما أراد أن يعبر عنه مفدى زكرياء تعبير فنان :

ومن مهازل هـذا الدهر ••• منتصر   يبكى عـلى حائط المبـكى بمـدرار !
وخاســـر ••• يعقد الافراح مبتهجا   كالطير يرقص مذبوحا على النار ! (1)

واذا اعتبرنا ما فى الاصالة من مواجهة الغير كانت الوطنية أقوى ســلاح للدفاع عن الذات وللصمود أمام التحديات وأصدق مرشح للمعطيات المكتسبة

---

(1) العمل : 19 اكتوبر 1968

والمستوردة أو المفروضة فرضا . ولما كانت الظروف تقتضى أن نقارن أنفسنا باسرائيل يكفى أن نعرض فقرة من قصة لشاب يهودى تبين عمق الوطنية وتميزها عند هذه الامة التى لا نبالغ ان قارناها بما ينجم من أشطاء حول شجرة قص جذعها مرارا ولكنها قويت على الزمن « **أنت الآن فى بلد حديث جدى نشيط . من تل أبيب الى البحر الميت ومن حيفا الى ايلات لم يعد أحد يهتم بحمى اليهود وقلقهم أو بدموعهم وأوساخهم . لا أحد ! لم نعد نحب استماعا الى حديث عن الفكر اليهودى الناقد أو عن ذكاء اليهود وشكهم أو عن التنكيل بهم وعن عارهم وشقائهم وعن غير هذا وذاك . (يفيض الدمع على وجهه) . كل هذا نتركه بحمالى أوربا الذين هم من نوعك ! أما نحن فعناصر قوية . أشداق مربعة . عمالون . لسنا مغنيات « يديش » (1) على غرار بروست وكافكا وشابلان ! أنبهك الى أننا أحرقنا فى ساحة تل آبيب الكبرى انتاج بروست وكفكاوشركائه وكذلك لوحات سوتين وموديقلياني وغيرها من اللافقريات . كل هذا أحرقه شبابنا الذى لا يغبط شباب هتلر . شبابنا الاشقر ذو العيون الزرقاء والاكتاف العريضة والسعى المركز . الراغب فى العمل والمشاجرة ! (يصرخ) . بينما كنت تنمى أمراض أعصابنا وتبكى كان يفتل سواعده ويعمل فى «الكيبوتزيم» ألا يخزيك هذا يا شلايمو لوفيتش ؟**

— **بلى سيدى الجنرال** » (2)

هذه المواجهة والتميز والرجوع الى الذات بحثا عن اصالة أمة كان التاريخ أذابها فانصهرت لا نكاد نجد لها أثرا قويا متصلا فى تاريخ العرب الحديث، لا فى ميدان الادب والفن فحسب بل وعند كثير من أهل الزعامة والسياسة . لقد جاء فى مقال لفرحات عباس تحت عنوان : « فرنسا هى أنا » كتبه عام 1936 ما يلى : « **انه لا وجود لهذا الوطن (الجزائرى) فانا لم اكتشفه لقد سألت التاريخ . وسألت الاحياء والاموات . وزرت المقابر . فما من أحد حدثنى عنه . إننا رفضنا الاخيلة لآخر مرة لكى نربط مستقبلنا نهائيا بمستقبل العمل الفرنسى فى هذه البلاد . فنحن أبناء عالم وليد انتجه الفكر الفرنسى وجهده . شعارنا اذا : الى الامام** » (3) .

ثم يمضى ربع قرن فيردد غيره : « **نحن عرب . نحن عرب . نحن عرب ...** »

---

(1) yiddish : لغة مزيج من عبرية وألمانية .

(2) Patrick Modiano : La place de l'étoile - P : 133

(3) كتاب ر. كاليسكى المذكور سابقا . ص : 122

يضيف الكاتب : « ولكن سرعان ما تراجع فى قوله ».

غير ان الوطنية الواقعية المنبهة للاصالة تتجاوز تعابير الغريزة لتكون وعيا وعملا :

وعيا لواقع الوطن وعملا بمقتضياته : فمن الاكيد أن معظم الازمات التى حلت ببعض البلدان العربية ، حصوصا فى الميدان السياسى والحربى ترجع الى استجابات غريزية لم تصعدها الاحداث بعد الى مستوى الشعور • لقد اثبتت الايام الستة بصفة قطعية أن ما ينقص هذه البلدان ليس العتاد ولا التصفيق الآلى لاولا الردود الجماعية « القومية » غير الواعية • وانما هو الشعور المركز بشدة انتمائهم الى وطن معين يتحد مصيرهم ومصيره • هذا الشعور المركز هو الدعامة الاولى للشعور بالاستقلال الفعلى • وهو سبيل مباشر الى مراجعة الايديولوجيا العربية وتوضيح ما فيها من جوانب النقص والخور • وجديرة هنا الاشارة الى أن فكرة الوحدة العربية ضرب من الخيال ما دامت البلدان المعنية بالامر لم تجتز هذه المرحلة الاساسية من الوعى الذاتى • فهى تصطدم بمعطيات اجتماعية واقتصادية وسياسية تختلف باختلاف البلدان • خصوصا وأن التاريخ ــ لاختلاف النظرة اليه ــ لم يعد من دواعى الوحدة أو من مقوماتها•

ان الفترة التى يمر بها العالم العربى هى من أدق الفترات التى عرفها • وهى وان صدمت العام والخاص بملابساتها السياسية تجد لها أسبابا سابقة للازمة مهيئة لها ، وترجع أساسا الى انعدام الشخصية العربية الاصيلة كرابط حى بين ماض غامض يحتاج الى توضيح وبين حاضر أكثر غموضا لاغنى له عن حس واقعى ونظرة علمية الى المعطيات • على أن هذا الرابط الدقيق العسير يتطلب اولا ايمانا بالذات واقتناعا بوزنها ولن يتم هذا إلا بمحو الاســاطير الموضوعة وحل العقد الموروثة • أن نرفض الصورة المشوهة التىيعكسها الغرب منا وكأنه أصدق مرآة لوجودنا • اذ لم يعد بوسع العربى أن يتعرف على ذاته الا من خلال الغرب • وهو لا يؤيد عملا سياسيا أو أخلاقيا أو فنيا الا اذا أيد الغرب • على أن هذا الرفض لا يعنى قطع الحوار العادل وغلق نوافذنا المفتوحة لتجاربالغرب ومزاياه العلمية والحضارية • فذاك مما تجاوزه التاريخ فلا رجعة فيه ولاحياة بدونه • ولكنه نداء الى تغيير المواقف وتبديل النظرة الى الذات أولا والى الآخر ثانيا • فما دام العربى عديم الثقة بنفسه غير قادر على ابراز أصالته الشخصية استنادا الى معطيات لغته ودينه ووطنه فهو أعجز من أن يفهم الحوار وأن يثبت فيه وأعجز من أن يصنف المستوردات وما تهب به الرياح • خصوصا اذا كان من جيل الانتقال • هذا الجيل الذى لم يدرك من تاريخه الا آخر اللحظات التى يعيشها • فاذا هو ينقم ولا يكاد يتحسر • ثم اذا هو يفر فى غير احتجاج ليفتح ذراعيه متلهفا عطشا الى كل ما يلقى به الغرب اليه • لكأنه يجمع على الركح ما استعمل الممثلون وانتفت حاجتهم اليه : سراويل وفساتين ولحى واقنعة •••

لا لشىء الا لاعجابه بروعة التمثيل وبراعة الممثلين· وعبثا يحاول اجادة الدور· فالموقف سخيف ساذج والتقليد مضحك نادر ! الرفض وعى لحقيقة اثبتها التاريخ المعاصر : **ان استعمال الجديد لا يخلق عربيا جديدا ·**

فالمهم صنع الجديد لا استهلاكه مصنوعا · ذاك ما قاله الغربيون انفسهم حينما كتبوا : « **يخطىء ويغالطنا من يدعى أن الامة العربية أخذت عنا اليوم مشعل أفكارنا الانسانية · انها تستعمل كلماتنا التقدمية المثالية ولكنها تقوم باعمال اجتماعية رجعية · هى ضد الاستعمار ولكنها أمة عبيد** » (1) ·

فمتى أصبحت للعربى كلماته أمكنه بحق أن يسمى الحدث : « **ثورة عربية** »

الطاهر الليبب

باريس – اكتوبر 68

◆ **أهدانا** مشكورا الكاتب المعروف وديع ديب مجموعة من كتبه وهى :
– الشعر العربى فى المهجر الامريكى
– نساء وأفاعى مسرحية فى ثلاثة فصول
– نحو جديد

(1) Emile Roche - le monde, 14 Sep. 1956.

صراع الوقف

قصة بقلم : رشيد الغالي

> لا تسلني يا صديقي : ما كتبت ؟ ، أخلصك القول بأني لا أستطيع أن أجيبك الا بأنه مجرد انفعال باطني أضناني حمله فنفضته عني ٠٠٠ ولما قرأته هدهدني ٠ سمه ما شئت ٠
>
> **ر٠ غ٠**

أخرج حامد علبة سقائره فوجدها مجوفة ، فتلمسها باصابعه وأخرج منها آخر لفافة ثم أشعلها ووقف الى بلور شرفة غرفته ينظر الى سماء صافية ، مشعة ٠٠٠ وطالعته فتاة زنجية ، يافعة ، تجمع ما على سطح العمارة المقابلة من ثياب جافة ، ولعل شعورها بخلوتها على السطح دفعها الى رقص سريع ، عذب ، ٠٠٠ كان حامد الى مشاهدتها ساكنا حتى أحس بنار سيقارته تتدانى من أصابعه ، فألقى بها ، ثم ارتمى على فراشه ، تعبا ٠٠٠

كان يشعر بشيء ، كالوحل او كالظلمة الموحشة ، لزج ممض ، يلفه ويطمس فيه كل نزوع الى الحركة ، الى الابتسام ، الى الحياة ٠٠٠ كان شعوره بالحياة كالهيام ، او كالعته ، أو كالاغفاء ، شعورا منطمس المعالم ٠ منمحى الفعل ٠٠٠ انه يشعر بأنه ذات ، بين الذوات البشرية ، ذات وجود ، وذات تفاهة ، وان ذاته هذه هائمة في مهمه فسيح ، لجب ، يهزها سأم فتنتفض بدون لذة او عميق انتفاض ٠٠٠ وكان لا يدرك كنه أفعاله او غاياتها البعيدة الشيء الذي جعله في تواصل انزعاج آلية مقيتة ، ورتابة قاتلة ، ووتيرة واحدة شاملة ٠٠٠ وكان كل هذا يتصعد الى سطح شعوره في بغتة سليطة ، قاهرة ، فيتحرك ليفجر في جنون دارة الفراغ ، الفراغ الذي يغمره ٠٠ ، ثم يقوم بأعمال ٠٠! ولكنه سرعان ما ينذهل فيقبع ساكنا في وحدته الى ان تراوده طمأنينة التطبع ، وتغور فيه رعدة الوعي ويخرج الى الناس ليعيش عيشهم ٠٠ ، وليقول في بهتة مريرة : ها قد مر يوم ، يوم واحد يا حامد ٠

ويلوي رأسه الى نافذة غرفته في شيء من الراحة تهدهده آمال حلول يوم يترقبه ٠٠٠ يترقبه منذ أن غرزته الحياة في لجي الحياة ٠٠٠ هو يوم لا يعرف عنه شيئا مدققا ٠ ينتظره في شوق وتوق ، لانه يومه العظيم ، الكبير الذي يشده للحياة ويعلل له وجوده في هذا الكون ٠٠

وا دا ما اشتدت عليه سورة ترقبه وعنفت لهفته يغرق حواسه في لهب صهباء فاتنة ، حتى اذا كانت عليه عائمة تقرحت فيه خواطر قيمة عن الحياة ، وعن الانسان ، وعن القيم السامية ،٠٠ وتغازله مراتع هذه الخواطر فيسكن الى شيء من الاطمئنان ، وتأخذه شفقة بالانسان ، ويكون الى العمل المفيد ظمآن ٠٠ ، والى الناس حبيبا ، رفيقا ، ٠٠٠

رفع حامد يده اليسرى ونظر في ساعته ، فاذا بها تشير الى الخامسة بعد الزوال ٠ لا تزال تفصله ساعة على موعده مع نادية ، ٠٠ وتململ على فراشه وهو يتمتم : يا حبيبتي يا نادية ٠٠٠

كان قد عرف نادية منذ ما يقرب من عام ٠٠٠ كان ذلك في آخر شهر سبتمبر ، وكان يتجول على شاطىء البحر وحيدا ، فدخل مقهى وطلب كأسا ، ثم استأجر غرفة استحمام وخلع ثيابه ثم نزل الى البحر ٠٠٠ كانت الساعة تشير الى الثالثة بعد الزوال ، وكان البحر خاليا من رواده ٠٠٠ ، واستلقى على الرمال ، ٠٠ كانت جلبة الناس داخل المقهى متلاشية ، متقطعة ، فاترة٠٠٠، وتذكر كأسه التي تركها على رف الحانة فذهب اليها في ثياب السباحة ، فاذا هي قائمة هناك ، قد تندت جنباتها وسالت عليها خيوط ماء رقيقة ، ملتوية فأخذها بين يديه في تحنان ٠٠ ، وفيما كان يرفعها الى فمه أبصر نادية جالسة الى منضدة عليها كأس كبير به عصير ليمون أصفر ، تطالع كتابا ٠٠ ، كان يلوح عليها هدوء واتزان ٠٠ ، وهبت نسمة باردة ٠ فسرت في جسم حامد قشعريرة فأفرغ كأسه ثم اتجه نحو حجرته ٠ وفيما كان يمر بجانبها رأى شابا منكبا على منضدها يراودها فاعتذرت في طيف ابتسام ٠٠٠ وعاد حامد الى كأس ثانية ،٠٠ كانت أصوات حرفاء المقهى ترتفع مع كل كأس شيئا فشيئا الى أن اشتد لغطهم فأخذ كأسه ودنا من نافذة تشرف على البحر فرأى الموج يعلو وتشتد سرعته ، فرفع عينيه الى السماء فاذا هي رمادية اللون ، تعبرها سحب كقطع رصاص ثقيلة ، مدلهمة ٠٠٠ وسرت همهمات في القاعة ، واتجه بعض الفضوليين الى الشرفات ، ثم كانت جلبة تلتها لحظات سكون ٠٠، ثم عاد القوم بتعاليق شتى عن أوائل هذا الخريف٠٠٠ ودعا حامد نادية لنافذته، فنهضت متأنية متريثة ٠٠٠، كانت قطرات مياه المطر غليظة ، راشقة سريعة ، ترتطم ببلور نافذتها ثم تنحدر ، متعرجة ، كدمع رقراق ٠٠٠، وخرجا الى شرفة رحيبة ٠٠، وكانت الى الماء حبيبة ، الى قطيرات المياه المتراكضة رفيقة ، مستطيبة ٠٠، وأخذته رغبة في لثم هذا الوجه الناعم غير أنه لم يجرؤ ٠٠٠ وكان الى كؤوس اخرى ٠٠٠ وكانت نادية اليه لطيفة ، وفي حديثها عميقة ، لا لغو فيه ولا فضول ٠٠، وادلهمت السماء وهما الى شجون حميم ٠٠٠ وترافقا في تجوال عبر شوارع المدينة ٠٠٠

نظر حامد فى ساعته ثم غادر بيته للقاء نادية ··· قالت له : ها قد حل صيف آخر فلم يجبها · ودخلا مقهى عصريا · كانت تحدثه مجهدة ، تبحث عن موضوع طريف · وكانت عينه الى فتاة جالسة قبالته تعابث شيئا فى يدها · كان قوامها قائما كالصعدة أو كهزة أمنية جموح ، وكان وجهها فيض جاذبية لا تنضب ··· والتفت الى نادية فابتسمت له وهى تمد يدها الى علبة اللفائف ، ثم همست له : انها جميلة · ونظر فى عينيها وهو يمد لها الوقيدة ، فأضافت : ـ ان المرأة تبحث دوما لتكون جميلة لترتوى أو لتحاول الارتواء ، وتقدم من أجل ذلك كل نفيس ·

فقال حامد :

ـ اذن هى غير جميلة جبلة · فقالت بعد صمت :

ـ لا ، حتى فى الحب ·

ـ اذن ؟

ـ هى بشعة· وشعورها بحقيقتها هذه يجعلها الى الطلاء عبدة· والعجيب أن الرجل يعرف ذلك ويقبل كل ذلك بكل يسر بل يرغب فيه ولا يمكنه ان يميل الى المرأة بغير ذلك ·

ـ والمرأة بذلك شاعرة ، وفيه ممعنة ، والى الاغراق راغبة !

ـ المرأة عند الرجل ألوان بدون جوهر تبهره فيغمض عينيه ويستجيب لها ولو ركبت من الزيف ، من الهباء ، أو حتى من التهيل ! ألم تكتب عنى يوما : هى بعد حلم ، هى تحليق خيال ، بل هى تطويح أسطورة وارسال لحن عميق ··· أأنا لك اليوم هذا الذى كتبت ؟

وعلا وجه حامد وجوم · ووقفا واتجها نحو الفتاة وانتصبا خلفها ، فمد حامد يده الى شعرها الطويل وأرسل يده معه فالتفتت اليهما وابتسمت ···

* * *

اختفت نادية أياما ، ولم يعثر لها حامد على أثر ، ثم انه لم يجد لاختفائها تعليلا ··· وعظم شعوره بالفراغ ، وقسا عليه يوما كان قيظه شديدا · وتذكر أن نادية قالت له يوما ان الحياة ، انما هى شتات لتفاهات اذا ما أحسنا جمعها تكون وحدة ذات قيمة كبرى ···

وركب حافلة نقل عمومية · كانت زحمة الركاب بها عظيمة ، وكانت الهاجرة فى أوجها ، فزفر أحد الركاب وهو يمسح ما تفصد على وجهه من عرق · فقال له حامد : ان الحر خانق فى هذه الايام · ثم صمت ، فراح رفيقه يفيض فى الحديث عن مناخ الجهة فى الصيف · غير أن حامدا لم يكن الى حديث صاحبه اذ أحس أنه قال عن الحر نفس الجملة أكثر من مرة · وانه

سيعيدها بحذافيرها كلما دعا لذلك داع وانه لا يمكنه التخلص من ابتذالها ٠ وأخيرا انه أحس أنه يعيش على البلى وقد انطمس فيه كل ابتكار ٠٠٠ وعاد بعد حين الى حديث صاحبه حتى وقفت الحافلة فى احدى محطاتها ، فسد باب الصعود بامرأة بدينة، عريضة تململ لحمها وفار حتى أثقل حركاتها٠٠٠ وحملقت ، وهى تقف متأنية ، فى الجالسين وعلى وجهها تعبير عن اجهاد ٠ وتدانت من حامد فمنحها مقعده ، فهوت عليه ٠٠٠ كان يجلس أمامها طفل ، يمسك فى احدى يديه محفظة أدواته المدرسية ٠ وفى الاخرى مسطرة ثلاثية الشكل ، قائمة الزاوية ٠ فما ان رأى المرأة حتى استرعى انتباهه انتفاخ ودجيها ، فرفع يديه الى عنقه وراح يتلمسه ، ثم ما لبث ان أخذ يضغط عليه بكلتا يديه ، وهو فى ذلك ، مسمر عينيه فى صاحبته السيمنة ، فالتفتت اليه بأنف رامح ، وعين قاسية ، وشفة متمتمة ، فخشى شرها وعدل عن فعله ، وعاد الى مسطرته يرفعها الى فمه ويلعقها بلسانه ، وكلما آنس منها غفلة قلدها فى غطيطها ، مستهزئا ٠٠٠

ونزل حامد متوجها الى بيت نادية مستخبرا ٠٠، ودخل عليها فوجدها ساكنة ، متخاذلة ، يعروها شىء من الذبول ، او التغضن ٠٠، وسألها عن أحوالها ، فلم تجب ٠٠ ؟ وعاوده شعوره بالابتذال او بتبذله ، فنهض من مكانه وصعق فيها : قفى ، تحركى ٠ فرفعت اليه رأسا متثاقلا ، ثقيلا ٠ فلطم وجهها بعنف ثم خرج وتركها تنتحب ٠٠، وأحس بشىء من الراحة ثم تساءل ان كان ما فعله هو الجنون ؟ وفى المساء كانت بجانبه تعانقه ، رشيقة، كيسه ٠٠٠ قالت له : الفراش ، يا حامد ،٠٠ انه ممل ٠ فهمس وهو يلثم أذنها : نهمى ، نهمى يا نادية دنيا لا تحد ، واشواقى ، اشواق سماء ، سماء ، الليلة ليلتى ٠٠٠ ليلة الاغراق ، ليلة الابحار ٠٠٠

ثم كان ، بعد حين ، الى صدرها ، فى غمغمات لاهثة ، وكانت ، هى ، اليه باردة ٠ فقال : ــ ألم تعد تثيرك مداعباتى ؟ قالت : يدك على يدى مات مفعولها ! فقال : لالهبنها حتى تحرقك ٠ قالت بعد صمت : لن تستطيع ذلك لان يدى على يدك قضى تأثيرها ٠ لقد كان يراودنى ، منذ أيام سؤال : هل أنا أنتهى أم هل يجب أن أكون فاجرة ، لعوبا ٠ عجبا لامر الدفء ، انه لا ينبع الا من الفجور ٠٠، من العبث ! لقد كان صوتك الى ، قبل ، مناجاة ٠ وهو الآن، هو هو ، غير أنه صار يقرع أذنى واقفا ، حادا ٠٠٠ وأرخى جسده بجوارها ثم مال الى شعرها وغمر فيه وجهه وأخذ يلوكه فى هرش محموم ، غير أن الشعر لم يطاوعه ولم ينه اليه أى طعم ٠٠٠، ورفع رأسه لصاحبته فوجدها مغمضة العينين ٠ فعاد الى امتداده بجوارها وهو يقول : لقد انتهى الامر ٠ لقد انتزعت ٠

قالت له : لقد رأيت ، ذات ليلة ، فيما يرى الرائى أنى الى شاب فيه من كمال الرجولة حظ وافر ۰۰۰، كان يريدنى فى لهف نهم عنيف ۰ وكنت أدرك منه ذلك ، وأنا الى ذلك شاهية ، راغبة ، أستبطىء لاستمرىء حتى احتد جموحه ، وتلهب نزوعه ، فانقض على فاذا بى بين يديه طيعة ۰۰، وكنت له ۰ وكان لمسه يفعل فى فعل السحر ، وكنت أدفع عنى الاستجابة لارى الرجل فى قمة صبابته ، فكانت يدى على وجهه تلاطفه ، وفمى على فمه فى لثم خفاق ، متواصل ، ولما انزلقت يدى الى رقبته أدركت أنى أنتقل الى حالته ، وانى لم أعد أحس بدفق لهاثه الحار على وجهى ، ولا بعرقه الذى كان يندى جبينى ، فحاولت التملص مما أنا فيه ، غير أنى بوغت به يسكن ويعود الى مؤانسا ، هادئا ، ووديعا ۰ غير أنى لم أسكن لانى أحسست أنى أفعل شيئا شاغلا أخرجنى من الخواء الذى كان يشملنى فملت على رقبته أمرر أصبعى على أحد شرايينها ۰ وأخذت أناجيه ، وكان بيانى رفيعا ۰۰، وكان صاحبى صامتا ، أو متناوما۰۰، وكان يعرونى شىء كهدهدة بقايا انتشاء أو ولوع۰۰، ثم استدار نحوى حتى صرنا الى عناق ۰۰، وكان على فى هذه الجولة سيدا فلنت واستكنت ، واستعذبت ،۰۰ ولا أدرى كيف تصعدت الى صورتك فأغضيت ، وأبعدتها عنى ۰ ثم كان العجب بعد ذلك ! فاذا بملامح صاحبى تغيض لتبرز مكانها قسماتك أنت ۰۰، وما هى الا أن وجدتك بجانبى لحما ودما ۰ وارتج فى كل شىء ، وشملنى عرق بارد أثلج كل نوازعى ، وتقهقرت متملصة ، كالمذعور من أسد ضار ۰۰، فقد كنت مغمضا عينيك تفغم بشفتين جافتين ۰ فأدركنى عليك اشفاق ، ووجدتنى بعد حين اليك متدانية ، ولكنى لم أكن على ما كنت عليه الى صاحبى فعاودنى الشعور بالملل ۰ وما هى الا لحظات حتى استيقظت ۰۰۰ كان صوتها ياتيه عريض القرار ، هادىء النبرات ۰۰۰ وأحس بها تبكى ۰۰۰ قال لها بعد صمت ثقيل :

ـ ألا نتزوج يا نادية ۰ لعل هذا يخلصنا مما نحن عليه ۰

قالت وهى تودعه : بى حاجة الى العزلة ، الى عزلة طويلة ، ثم قد أخرج اليك زوجة وفية ۰۰۰، ثم حدجته بنظرة بارقة وقالت : لاحطمن قيدى ولاستنزلن الصاعقة ۰۰۰

* * *

كان ذلك آخر لقاء له مع نادية ۰۰، وامتد الصيف صاخبا ، وكان حامد الى الشواطىء الرملية صديقا ۰۰۰ كانت السماء صافية ، لزرقتها انشراح كمذاب الرصاص نقاء ،۰۰ والبحر تحتها يمتد متغضن الصفحة ، متموج التجاعيد يتململ مائعا ، رائقا ۰ وأشعة الشمس تنصب على وجهه حامية وتغور فى أعماقه فيبدو مضيئا ، مشعا ۰ أما الرمال ، فهى هناك ، مترامية ،

صفراء دقيقة ، ساكنة الى أجساد الحسان المتنمرة تستقبلها فى رفق والتهاب عاطفة ... وعيون الشباب بارقة لامتداد القامات الفارعة ... وهمس حامد : القوم هنا سعيدون بالحياة ... وانطفأت فيه ، فجأة ، ابراقة انشراحه ، اذ أحس بحاجته لامرأة ،... وغادر الشاطىء وبنفسه قابلية كبيرة لكل مغامرة ... وعاد فى المساء الى تجواله ... كان الشفق يلامس اليم فى لطف وجلال ، وكانت المياه تتهامس فى تموج خفيف ، متراقصة فى هالة زيتية ، براقة...، وأخذت السماء لونا أشهب صافيا ، وشرعت رمال الشاطىء الندية تستقبل زوارها ...، وتكاثرت حلقات النساء على الرمال ، فبن فى احجبتهن كالحمائم البيض المتداعبة . أو المتزاهية ... وطالعته بناية النزل الكبير سامقة ، تتعالى فى عظمة ، فدفعه فضوله الى محاولة عد طوابقها ، فاشتبكت أمام عينيه واختلطت ... دخل قاعة الفندق الفسيحة التى يستدير فى داخلها المرقص ، فوجد الهدوء النسبى مخيما على القاعة ، وكان خدم الفندق فى أثوابهم الانيقة يتنقلون بين المقاعد الوثيرة ..، فجاء حامد الى آخر رف المشروبات واتكأ عليه بمرفقه وطلب كأسا ...، كانت الى جواره قهرمانة فى مقتبل العمر ، سمراء ، أنيقة ، جالسة الى آلتها الحاسبة ، فنظر اليها ، فابتسمت له ، ورجته أن يتحول الى مكان آخر لان مكانه مخصص للاستعلامات ، فنظر اليها بدون ان ينبس ثم انشغل عنها بنادية الى شاب تطارحه الهوى ... وجاءه صوت القهرمانة بعد لحظات :

ـ سيدى . تفضل . ومدت له يدها تحمل كوبا أنيقا . فقال لها وهو يأخذ كأسه :

ـ وكأسك ؟

ـ لا أشرب .

ـ ولو ليمونا .

ـ ولو ماء

ـ يا لك من حيوان وديع .، ومطت شفتيها وتشاغلت عنه ... كان صرير الآلة الحاسبة يرن فى أذنيه قاسيا ، وكانت كلمات الشكر المصطنعة مملة ...، فالتفت الى نادية فوجدها اليه محملقة . كان وجهها مدعوكا ، فيه اعياء وسأم ... وانطلق فى القاعة لحن هفهاف ، سريع ، فدعاها صاحبها الرقصة فاعتذرت .

ومدت له القهرمانة كأسا أخرى فأخذها . فقالت مداعبة مشيرة الى نادية :

ـ انها امرأة عاقلة ، دافئة تمنح الرجل أوج أنوثتها . جرب حظك . انظر اليها ، فى وجهها جلد التجربة ورصانتها . ان هذا النوع من النساء كالممرضة الرحوم، قد تمنح مريضها ابتساماتها لا عن ارادة وانما احسانا...

وتركها فى هذرها ··· ورأى نادية تترك صاحبهـا وتتجـه نحوه ··· وخرجا معـا ·

قـال لها : كيف تتركين صاحبك وتخرجين معى · قالت :

ـ لقد كان لى منذ فارقتك ، فى كل ليلة رفيق جديد ·
ـ مـاذا تقولين ؟
ـ كنت أجالس رفيق ليلتى جل الليل ، حتى اذا ما بلغت استجابتى له بعدا ما بعده بعد ، تركته لانام بمفردى فى منزلنا ·
ـ ولمـاذا لا تنامين معـه ؟
ـ أردت أن أكون على اللذة مقيمة ، أردت أن أسبر مثيـرات اعمـاقها ثم أرسلها ، وأستجيب لنقرها ثم انحرها فى ذراها وهى لما تلامس البغية· لقد أردت أن أكون عليها وهى فى الدنى وفى العلى ، أردتها بلا استقرار أو قرار ، بلا نهاية او انتهاء ، وكلما لامست الابحار صعقتها ، وهكذا حتى تنفطر فى نوازعى ، ونعمى مشاعرى وتفيض فى همود أبدى ···

قـــال :
ـ انهـا رياضـة الزهـــاد ·
ـ بل هى أشد منها لانها لا تنطلق من الحرمان وتعيش له وانما تنطلق من اللذة حتى اذا ما طفرت ، تردها بكبح سليط وسطوة حديد ·
وقد اردتها ألف ليلة وليلة ·
وذهب حـامـــد ···

رشيـد الغـالى

صفي

شعر : رياض المرزوقي

هيا صفيه قولى ـ واشبعى فضولى
تحدثى عن حسنه ـ عن شعره الطويل
عن لطفه الواضح عن ـ كلامه الجميل
صفى لنا حياته ـ بكامل التفصيل
كم عمره، ما كسبه ـ لا خوف أن تطيلى
آنستى وحبه ـ كالشجر الظليل
آنستى وعطفه ـ كالماء والحقول

* * *

لكنه بجانبى ـ أقل من قليل
يعيش صخرا جامدا ـ يفنى مع الخمول
كالناس ، كالسماء كالتراب ، كالطلول
وإننى فى ليلكم ـ أضىء كالقنديل
يشع لمح نوره ـ جيلا وراء جيل

* * *

أبقيتنى ملقى على ـ حجارة السبيل
أقبل الأقدام فى العود وفى الرحيل
لكننى أبقى بلا ـ شكوى ولا عويل
لأننى أقوى من الفناء والذبول

الهيكلية تواجه قضايا الانسان

بقلم احمد القديدى

ان « المتصفح (*) للمجلات والكتب التى تصدر فى الغرب منذ سنة 1950 يدرك النزعة العقلية والعلمية التى اجتاحت كافة دواليب التفكير المعاصر ، لا لتحجرها أو تجهز لها قوالب معينة ، بل لتفتح أمامها وامام دارسيها ابواب البحث والتحليل والخلق . فاذا كان علم الاجتماع او فلسفةالتاريخ اوالرياضيات او فقه اللغة قد شملها التطوير العقلى الواسع بفضل دراسات عميقة ورصينة،فان الادب والفن ونقدهما قد كانا عرضة لثورة حقيقية ، أتت على مقاييسها القديمة ففندتها وبعثت فى هذه الفنون روحا أخرى تعتمد « **وضع مشكل الخلق فى اطاره التاريخي والنفسانى والفلسفى الراسخ ، مع الايمان بانه مشكل ذو زمان محدد** » .

ولكن يأسف المصنف المعاصر لفقدان هذا العمل الحركى الكبير فى التفكير العربى : فقد أستسلمت نخبتنا الاكاديمية للقوالب البالية مكلفين انفسهم عناء ادخال لغة جديدة فى الفلسفة ، تعتمد اغلب الاحيان دغدغة العواطف الشرقية ، واستعمال الكلمات المجانية الرنانة ، ففقدنا بذلك جوهر الفكر وأصالته ونقاءه وقدمنا أعذارنا : من اننا أمة تقف صامدة فى وجه الفلسفة لسلامة دينها ومناعته ، ناسين عند ذلك ان التفكير الاسلامى بلغ ذروة مجده وتحليله للحياة والمجتمعات على ايدى اقطابه امثال ابن خلدون وواصل بن عطاء والغزالى والجاحظ وابن المقفع .

ولعل ذلك من اختصاص اهل الذكر ، من يحركون السواكن ، ويشرحون علل ركود الفلسفة ، ويقيمون مقاييسنا المعاصرة لوضع تفكيرنا موضع التساؤل ثم الشك ، ثم التحليل ، ثم الارساء والضبط والتدعيم .

وليس مجال المقال مجالا لهذا العرض بقدر ما هو محاولة شخصية لبيان ظاهرة عقلية جديدة ، لعلها اقوى وامتن واحكم الظواهر المتعددة التى تغلغلت الآن فى الفكر الغربى وهى « الهيكلية (Structuralisme) مع تحليل اصولها وعلاقتها بالعلوم الانسانية .

وقد باشرت دراسة هذا المضمون فى عدة مؤلفات وضعت لهذه الظاهرة

خصيصا او نقدتها او صنفت ضعفها او استدلت بها . مع مراجعة المجلات الفرنسية التى برهنت على قدرتها الفائقة فى دراسة امثال هذه القضايا الجسيمة خدمة للفكر .

وان الصعوبة التى تعترض الدارس لهذه القضايا تتمثل فى اللغة ، فالعربية بقدر ما كانت لغة الفلسفة والمضامين الفكرية العميقة ، اصبحت بسبب القرون المتتالية من الجهل والانحطاط والاستعمار،لغة التعابير الماورائية ولغة المواضيع الشعرية حيث تخلى عنها العلم وتخلت هى عن الفلسفة فوقع الطلاق بين العصر والعربية ، برغم ان العرب يتحفزون لاقرار المعاصرة بينهم وبين العالم المتحضر .

وقع هذا الطلاق ولا يكفى ان ننفيه لنحل المعضلة ، بل الاعتراف بوجوده هو الخطوة الاولى على درب الالتحاق بالحضارة العقلية الجديدة واخصاب لغتنا بما نمنحه إياها من كسب علمى مضمون وأبعاد فكرية متجددة وحية وقابلة للتحوير والنقد والتطور .

الهيكلية ومشكلة التاريخ :

ان « الحديث عن التاريخ البشرى كمشكلة » يوضح لنا ما دخل على هذا العالم « المجهول الغامض من تفسيرات شتى ، تضعه موضع التساؤل ، ، ولا تقبله كما هو « **عالما** » زاخرا بالاحداث ، نحفظ اسماء ابطاله واقطابه ، ونقف بخشوع على آثاره الباقية نستقى منها « **معنى** » التاريخ . ومن الاكيد ان الهيكلية هى التى وضعت هذا المشكل معتمدة على النظرة الماركسية وفى اكثر الاحيان متبنية هذه النظرة بأكملها مع اضافة عناصر اخرى ساهمت فى تعويض علم التاريخ بعلم الشعوب (Ethnologie) وقد اعطى المفكر الفرنسى شارل باران مفهوما مقتضبا لعلم الشعوب مقارنا اياه بالتاريخ قائلا : « **ان التاريخ يمثل نتائج الاحداث ويستعرضها ، اما علم** الشعوب فهو يحلل العناصر اللاواعية للحياة الاجتماعية .. » (1)

فهذه العناصر اللاواعية للمجتمعات هى التى تشكل « **الهياكل** » القارة (Structures invariables) لتطور الشعوب ، وهى التى وقع اهمالها من طرف المؤرخين حسبما يعتقده المفكرون الهيكليون ويجدر بنا ان نعرج على اتفاق وجهات النظر بين النظرة الماركسية والنظرة الهيكلية للتاريخ ، يقول ماركس :

« ان التاريخ بأكمله ليس سوى تغيير مستمر للطبيعة البشرية »

ويقول أنجلس :

« ان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، ولكن لحــد الآن دون ارادة جماعيـــة » (2)

نتبين من خلال الكلمتين ان التاريخ يكتسب طاقة اخرى فعالة لا تكتفى بتسجيل الاحداث بشكل ادبى مكتوب اومدروس حسب الآثار الباقية بل يتعدى ذلك حتى يصبح قوة تغير الطبيعة البشرية وتخلق الارادة الجماعية لصنــع المصير ·

هذا ما فكر فى ارسائه اقطاب المـاركسية كمـاركس نفسه وانجلس ، ولكنهما لم يفكرا فى تقسيم التاريخ الى « **هياكل** » بالمفهوم المعاصر لهذه الكلمة انما ألح «**الهيكليون**» أمثال كلودليفي ستروس ولوسيان سيبارغ وبيار بورجلان على استخراج كامل عناصر الهيكلية التاريخية من النظرة الماركسة للتاريخ،حتى جعلوا من هذه النظرة مجموعة رموز تولوا شرحها ، وتحليلها حتى كادت تمحى الفكرة الماركسية وتتحول الى جوهر للهيكلية فى تقييمها للتاريخ · وقد وجـد الهيكليون تعليلا لعملهم هذا فى أقوال أنجلس الذى يؤكد :

« **لكى تثرى الماركسية ، يجب أن تتعلم من كل ما يصنع حولها ، ولكن دون الخروج عن خطها العقائدى المرسوم** » (3) ومن أجل ذلك أعتنق أغلـــب المفكرين الهيكليين الماركسية وعالجوا القضايا الجسيمة من خلالها ، ولعل ذلك تفنيد منهم لبعض مفكري الهيكلية الذين رفعوا هذه الفلسفة راية ضد الماركسية نفسها أمثال ميشيل فوكو الذى قال :

« ان الماركسية فى تفكير القرن التاسع عشر مثل السمكة فى الماء،تتوقف عن التنفس خارجه » (4)

وإذ أن هؤلاء تيقنوا من جسامة الماركسية وتغلغلها فى تفكير القـــرن العشرين فقد فكروا فى أحتضانها وجعلها طريقة عمل لا تتنافى مع الهيكلية بل تدعمها وتشكل أساسها الاول وينبوعها الاصيل · وبذلك تبلورت فكرة علم الشعوب لتعوض التاريخ ولتجعل منه دافعاً من دوافع تغيير الاوضاع الحضارية فكان هذا العلم (l'éthnologie) طريقة بحث وتحليل وطاقة نضالية من أجل خلق مجتمع متطور عادل فى آن واحد ، مما جعل المفكرين الهيكليين ينادون بهذه الطريقة لا لتعوض التاريخ الكلاسيكى فقط بل واساسا لوضع مضمون الفلسفة موضع الانتقاد ، لانهم بدؤوا كأسلافهم الماركسيين بالشك فى جدوى الفلسفة ؛ يقول ماركس :

« ان الفلسفة قد تأملت فى العالم ، بينما كانت تستطيع ان تغيره »

ويقول دولوز : « **ان الفلسفة هى تاريخ خضوع الانسان** » (5)

فمن الطبيعى اذن أن يشكل علم الشعوب قوة نضالية ملتزمة : زيادة على كونه طريقة دراسة . فاعتمادا على هياكل التاريخ التى يمكن للانسان أن يصنعها أو يوجهها أو يغيرها ، يرى مفكرو الهيكلية أن البشر هم محركو التاريخ وهم بالتالى بناة الحضارة دون تدخل ميتافيزيقى . ويؤكد كلود ليفى ستروس :

« **ليس من شىء يفرض علينا ، نحن نستطيع أن نعيد كل شىء** » (6)

وهذه القدرة التى تضعها الهيكلية فى الانسان هى ما اتفق عليه الماركسيون وجعلوها اساسا لكل بحوثهم كما أتخذوها علة لنفى وجود الله . ونلاحظ أن مجموعة هذه الافكار لم يسردها المفكرون المذكورون سردا مجردا بل تناولوا بالدرس عدة شعوب قديمة (بدائية أو عذراء) وأوردوا الامثلة التى أوضحت مدى جدوى أفكارهم . وأهم هذه الدراسات ، ما قام به المفكر الفرنسى لوسيان سيباغ عندما أعد بحثا حول شعب « البويبلو » الكائن بأمريكا الجنوبية معتمدا خاصة على أساطير هذا الشعب. فنراه فى الصفحات الاخيرة من دراسته يستخلص « الهياكل التاريخية » من حياة الخرافة لدى البويبلو ، ويحدد صلة الاساطير بالواقع معرفا اياها بكونها أجوبة على الاسئلة التى لا يجيب عنها الواقع ، ولا يخفى علينا هنا أن « سيباغ » يقحم الاديان البدائية فى جملة هذه الاساطير ويؤكد قيمة الحياة الخيالية فى دراسة التاريخ معتبرا أن ذلك هو الكسب الكبير للنظرة الهيكلية للتاريخ البشرى

التاريخ كفلسفة بين الوجودية والهيكلية :

كلنا يعرف أعتبار سارتر للتاريخ ككل متكامل ، نادرا ما يسمح الوجوديون بتجزئته أو تحليله ، حيث أنهم وسارتر فى طليعتهم يعودون بالسلوك البشرى الى الجوهر (Essence) وهذا الجوهر فى نظرهم لا يتغير ولا يمكن أن يوضع موضع الشك ، ومن خلاله يفسرون التطور الحضارى للبشرية . وذلك ما ينفى « **الهياكل** » . وقد رأت الحياة الفكرية الفرنسية مناقشات ثرية حول موضوع التاريخ بين الوجودية والهيكلية ، تصدى خلالها جمع من المفكرين الى اعطاء صبغة فلسفية لدراسة التاريخ ، فالوجوديون ينفون أهمية « الهياكل » ، وينادون بفاعلية « **التكامل** » بينما يدعى الهيكليون أن نظرية التكامل لا تستند على الواقع ولعل أهم هذه المناقشات ، مقالات حاولت أن توفق بين الوجودية والهيكلية ، نشر بعضها فى الازمنة الحديثةles temps modernes بامضاء « **نيكوس بولانتزاس** » (7) الذى أقر أن الفكرتين غير متناقضتين ، مؤكدا أن ما يجمعهما على خط واحد هو آنتماؤهما أساسا الى الينبوع الماركسى ونظرتهما المتشابهة الى فلسفة هيجل وذكر الكاتب قراءه بأن فكرة التكامل لم ترد فى كتاباتسارتر كجوهر قار

بل ان سارتر يعتبر التكامل ذا كينونة وهمية لا يتحقق الا فى الخيال • ويضع لنا بولا نتزاس خطين متوازيين بين تفكيرى سارتر من جهة وكلود ليفى ستروس من جهة أخرى • •

وتجدر الاشارة فى هذا الصدد أيضا الى مقال قيم كتبه روجى ڤارودى (8) صاحب كتاب « **ماركسية القرن العشرين** » الذى اعتبر منعرجا فى التحليل الماركسى للحضارة المعاصرة • وقام ڤارودى بنفس المحاولة لشرح النظريتين الماركسية والهيكلية للتاريخ كفلسفة ، حيث بدأ مقاله بأعتبار **الطريقة الهيكلية** كفترة نسبية من فترات البحث ، ولعلها اخصب وأعدل فتراته ، مؤكدا أنها لا تنفى الفترات الاخرى خاصة الفترة التى تتجاوز الهيكل الى الحركية الانسانية المتولدة عن هذا الهيكل • ومن هنا نلمس موضوعية نظرة ڤارودى للهيكلية كطريقة للبحث . (méthode de recherche) ثم يقول :

« **ان فلسفات الوجود كانت عاجزة عن اقامة العلوم الانسانية** » مشيرا بذلك الى التحليل الميتافيزيقى والمجرد الذى كرست له الوجودية دواليبها كلها ، غير عابئة فى أغلب الاحيان بالتأسيس التاريخى والتركيز الاجتماعى والنفسى والحضارى لفلسفتها • وينتقد « **ڤارودى** » ميشيل فوكو قائلا :

« **ان فوكو كان عاجزا عن تأسيس التاريخ عقائديا ، كما عجز عن ابراز جدوى الحياة المناضلية** » •

هكذا يعتقد ڤارودى أن الوجودية والهيكلية بمفهومها التقليـدى كانتـا رهينتى التجريد الفكرى للانسان والتاريخ ، حيث لم تقيما وزنا للمضامين الاجتماعية والاقتصادية• ولا يعتبر ڤارودى تبنى الماركسية حلا موفقا بل يقترح توضيح النظرة الماركسية وجعلها متماشية مع العصر الحديث • ونعتقد أنه من المفيد أن نورد رأى ڤارودى الذى وضع الانســان فى اطــاره الحقيقى (حسب الكاتب) حيث يرى أن الانسان كان عرضة لثلاث عمليات جـردته من قيمتـه الفعلية ، وهذه العمليات هى :

1) عملية كونية (cosmologique) اكد لنا **كوبرنيك** ان الانسان وأرضه ما هو الا ذرة مجهولة غابرة فى متاهات الاكوان •

2) عمليـة حيـاتيــة (biologique) اوضح لنا **داروين** أن التـاريخ البشرى وما قبله ما هو الا فصل أو حلقـة من مـلايين الحلقـات التى تشكـل التطور الطبيعى •

3) عملية نفسية تحليلية(psychanalytique) دلل لنا **فرويد** على أن الانسان الذي يعتبر مسؤولا عن أفعاله صانعا لمصيره ما هو الا نتيجة لرغبات بدائية كامنة في اعماق نفسه ٠

وفي خلاصة مقاله ، يتعرض ڤارودي كسلفه الى التوفيق بين الفلسفتين الوجودية والهيكلية ، مستعملا أداة أخرى تفرد بها وهي «الحرية» في الفلسفتين وما تعطيانها معا من طاقة خلاقة تضمن أنفصال عالم « **الهيكل** » المقرر مسبقا من طرف الماضي عن عالم « الحرية » الذي يتحرك بمقتضاه الانسان بطلاقة ووعي ومسؤولية ٠

ونلاحظ أن ڤارودي في مقال ثان رد به على أحد نقاد كتابه « **ماركسية القرن العشرين** » ينفي أن تكون الهيكلية فلسفة متكاملة بل يمنحها صفة **أداة للبحث العلمي** : (instrument de recherche scientifique)

ونشير في هذا الصدد الى بعض الانتقادات التي صنفها معارضو هذه النظرة الجديدة للتاريخ وأستعرضها « جون بيون » (9) ورد عليها وأهمها تقول أن الهيكلية لا ترى في التاريخ الا وهما ٠

وتصدى سارتر الى نقد فوكو فذكر بعض الاخطاء في الهيكلية حيث تعجز عن ضبط دور الاحداث الكبيرة في التاريخ وتحديدها ويضرب سارتر مثلا لذلك في الثورة الفرنسية التي لم يذكر فوكو مسؤوليتها في الانتقال من فترة 1775 الى فترة 1795 ، وهذا الانتقال هو « **الهيكل** » في لغة فوكو ٠

ومن هؤلاء ايضا نذكر « ميردوك » الذي اقترح ان يعوض عنصر الهيكل (العقيم حسب تعبير ميردوك) بعنصر دراسة القضايا الذي يسمح بوضع الانسان ضمن التطور المادي والبيولوجي ، ووضع المجتمع ضمن الثقافة ، والثقافة ضمن التاريخ ، والتاريخ ضمن الانسانية ٠ ومهما يكن من امر هذه المناقشات ، فقد واجهت التاريخ كمشكل ، وأجابت على عديد من الاسئلة بصفة جدلية (dialectique) ذلك أننا ، دون أن ننحاز الى العقائد التي يحاولون دراستها وفرضها ، نسجل عمق التحليل الذي لا يكتفي بالتحديق في التاريخ ، بل يرسم نقط استفهام كثيرة حول مساهمة العقل الانساني في صنع التاريخ ، والغاية من دراسة التاريخ ، ورسالة المفكر في المجتمع والحضارة ، ودور الاساطير في بلورة الواقع ، وتحديد مسؤولية العلوم الانسانية في توجيه الشعوب٠ ونحن نأسف لعدم أعتماد هؤلاء المفكرين على مؤلفات ابن خلدون وقد أقر العالم انه الباعث الاول لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ٠ وخاصة فيما يتعلق بنمو المجتمعات ، ونصوص ابن خلدون مترجمة يمكن لهم أن يعودوا اليها ،

وسنحاول تخصيص فصل من فصول دراسة الهيكلية لابن خلدون ولبعض المفكرين العرب لما نعتقده فى هؤلاء من سبق لميدان التحديق فى الحضارة البشرية ، ولعلنا نجد لهم الاعذار عائدين على أنفسنا باللوم ، لاننا أحرى بدراسة أجدادنا وأقرب لفهم معطياتهم وابعادهم ٠

الهيكلية المحسوسة فى العلوم العقلية :

اذا كانت « هياكل » التاريخ مجردة لانها لا تظهر فى الواقع بل تعمل عملها فى صمت غير بادية للعيان ، فان « **هياكل** » الرياضيات مثلا تعد محسوسة ، بوسع المرء أن يتأمل حركتها ، فهى تتوسط المعادلات لتغيرها وتبحث عن الحقيقة فيها ، أو كما قال نويل مولود (١٥) عن « **الشكل** » فالمعطيات الرياضية (énoncé) كمادة خام تمثل التجريد للواقع ، بينما تهدف « الهياكل » التى يخلقها الانسان الى وضع شكل معين لهذا التجريد ٠ أعنى ارساء حقيقة معلومة يقبلها المنطق لتلك المعطيات ٠ وما العملية الجبرية الضئيلة الا رمز لاجسم القضايا الفكرية التى جابهتنا بها الطبيعة ، أولا فى لغزها ، ثانيا فى تجردها عن الشكل الواضح ، ثالثا فى حاجتها الى « **الهياكل** » كطريقة لحلها ٠ وقد لخص ليفى ستروس هذا التوازى بقوله أن المرور من زمن تاريخى الى آخر هو بمثابة المرور من معادلة جبرية الى أخرى فى نفس العملية ٠

وبناء على هذا التوازى ، أتخذت الهيكلية الحديثة من العلوم العقلية مصدرا من مصادرها القديمة حيث أنها أولى العلوم التى وضعت الانسان أمام لغز الطبيعة ولغة الشكل ٠ هذا ويعتبر نويل مولود أن أتحاد الهيكلية والرياضيات هو على هذا الصعيد أعنى البحث عن الشكل فيقول :

« ان رجل الرياضيات يواصل رسالته النظرية التى تهدف الى أستئصال طابع شكلى (caractère formel) من الهياكل ، ورسالته العملية التى تهدف الى اعطاء الاشكال الرمزية تطبيقات ثرية ٠ فهو اذن يتجه بفضل هذه الدراسة الثنائية الى الشكل والى المضمون (Contenu)

وينتقد نويل مولود بعض مفكرى الهيكلية الذين حجروا هذه الفلسفة وجمدوها بأن وضعوا لها القوالب الجاهزة ذاكرا أن ذلك يوقعها فى الرتابة واللاجدوى ، كما ألح على التقاء النظرية الهيكلية العقلية بنظرية النسبية قائلا فى هذا الصدد :

« ان العلوم الهيكلية ترفض الشروط الواهية والمتعصبة ، لانها تصل دائما الى نتائج نسبية وقابلة للتطوير ٠ »

ولعل الجديد فى عرض نويل مولود القيم ، هو اعتباره للهيكلية بنتا للعلوم العقلية من جهة ، وغير جامدة او متحجرة ، ثم قابلة للتكامل مع العلوم الاخرى ، بقطع النظر عن أنها لا تعيش ولا تنمو فى معزل عن هذا التكامل من جهة ثانية ، كما ان نويل مولود يمنح للهيكلية العقلية طابع الجدل مشيرا الى غرضها الاول المتمثل فى « هيكلة » (structuration) الطبيعة وعلاقة الانسان بها ، بفضل دواليب تتكامل ولا تنعزل ٠

مشكلة خلق الانسان :

ان اختلاف الآراء ،وتشعب طرق التفسير فى مشكلة خلق الانسان ، دفعت مفكرى الهيكلية الى ابداء عدة ملاحظات جريئة وعميقة فى هذا الموضوع ٠ ذلك ان المشكلة رغم قدمها ورتابتها ، لم تبت فيها الاديان بما صنفته من حلول أسطورية لا يقبلها العلم ، كما لم تبت فيها العلوم لفقدان الجانب الروحى مما يجلب لها سخط الشعوب وعدم رضاها ٠ ونعتقد أنه ليس من مشكل أحدث الطلاق بين العلم والدين بمثل هذه الضراوة وهذا الاستمرار ، ومن المفيد أن نذكر محاكمة العالم الامريكي : « ستوكس » الذى درس نظرية دروين لتلامذته ، وقانون السلطات الالمانية سنة 1879 الذى تحجر بمقتضاه تدريس كل العلوم البيولوجية ، وعدم الاحتفال سنة 1961 فى فرنسا بالذكرى المائوية لصدور كتاب « **اصل الاجناس** » لدروين ٠ نلاحظ اذن أن المشكل يبلغ الحدة والقسوة الجديرتين بمثل هذا المفهوم المتناقض لاجل الجنس البشرى ، ذلك لانه لا يقع الانسان فقط موضع الشك ، بل كل أديانه وآلهته وفلسفاته ومعتقداته وآدابه وفنونه وتاريخه ٠

ما من شك فى أن المفكرين الهيكليين يؤمنون بنظرية « **الخلق التلقائى** » للطبيعة والانسان ، وهم يختلفون عن أسلافهم الوجوديين كسارتر والعبثيين ككامو الذين يعللون نظرياتهم بقيم الفلسفة المجردة ، قائلين أن العبث واللامعنى يكتنفان الوجود ويغلفان قلب الانسان وبالتالى يشعرانه بأنه صدفة وجد على الارض ، وغلطا نشأ عليها وعبثا يموت وبدون موجب ٠ هذا أساسا ما قاد الوجوديين والعبثيين الى نظرياتهم ، ونحن نعتقد أن ما تركته الحرب بعد نهايتها زاد فى شحن فلسفتهم بالقتامة ، مما جعلها اشبه برد الفعل ٠ ولكن الهيكليين نشؤوا على أنقاض هذه الفلسفة وجابهوا عالما تفتحت فيه أبواب الفضاء والغيب ولم تكد تبقى فيه عراقيل وهمية تعطل سير التفكير ٠

يعتقد فوكو أن « **البيولوجيا** » **بمفهومها التطورى** »(évolutionniste) لم تولد الا فى القرن التاسع عشر على يد دروين وباستور ، ويعطى فوكو رأيه فى هذا المشكل فيربط الصلة بين حركة الطبيعة التى تنمو وتتغير وتمحى

وحركة الجنس الذي يتطور ، مؤكدا ان الحركتين متكاملتان في اتجاه واحد • ونذكر في هذا الصدد ما أضافه بعض مفكري ، « **الهيكلية التطورية** » لاعمال أسلافهم هاردي ووينبرغ وهيكل ، ذلك أنهم وضعوا التفكير التطوري العلمي ضمن مناخ فلسفي يحدد أبعاده ويعطيه طاقة الخلق والابداع بمعزل عن مخاوف التحجر الاسطوري أو الوهمي السائد • ويشير فوكو أن كل المعارف تمر بمرحلتين : مرحلة الولادة ومرحلة التكوين ، ويضع فوكو الانسان ضمن هذه العناصر ، معتقدا أن هذا الانسان قد أكتملت نشأته « **بصفة هيكلية** » في القرن التاسع عشر ، حيث عرف أصله وفلسفته وعلل تاريخه و « **هياكل** » علومه ومعارفه ، فأصبح بذلك كامل النمو وفي الصورة الانسانية الحالية (11)

والشيء الجديد أيضا هو تسليم هؤلاء المفكرين بأن علماء البيولوجيا المحدثين كانوا باختيارهم وبوعيهم فلاسفة (12) ولعله من المفيد أن نشير الى أتفاق الهيكلية مع النظرة الماركسية لمشكل خلق الانسان ويبدو ذلك خاصة في قول أنجلس بأن المفهوم الجدلي للتطور يتفق أصلا مع المفهوم الجديد للماركسية (13)

موقف الهيكلية من علم النفس التحليلي :

يعتبر الهيكليون أن الثورة التي أحدثها فرويد باكتشافه لعالم « اللاوعي » ما هي الا الخطوة الاولى في وضع الانسان ضمن حقائقه النفسية والاجتماعية والتاريخية • وقد بدأ هؤلاء بانتقاد القوالب النظرية التي جمدت علم النفس التحليلي وجعلته يرزح تحت وطأة المناقصات التي لا يرتضيها له فرويد نفسه • كما أنهم نبذوا التحليلات التي وردت بعد فرويد • ونعتقد أن أعمال الهيكليين أمثال « **لاكان** » و « **لويس التيسار** » و « **ودوسوسير** » في هذا المضمار كانت تعميقا لنظريات فرويد ، باضافة عناصر هامة جدا ربطت هذا العلم بالحياة الاجتماعية وتطورات التاريخ وغير ذلك من العلوم الانسانية • وأهم ما جاء في اعمالهم هو اعتبار « **اللاوعي** » مظهرا من مظاهر العالم النفسي الكامل ، أو هو يمثل تفسيرا لهذا العالم (14) ثم انهم أتفقوا على الاهتمام بثنائية « **الفرد ـ المجتمع** » التي لم تكن محط دراسة من سبقهم ، ولها ينسبون نشأة « **الانا** » • ثم هم يعتبرون أن هذا « **الانا** » **ما هو الا نتيجة وهمية ، أو عارض مرضي يدافع عن نفسه ليعيش** » كما قال « **جون ديشون** » •

هذا وقد بلغت هذه التحليلات ذروتها عند « **لاكان** » الذي قام بعملية لشرح « **اللاوعي** » نلخصها فيما يلي :

« **بما أن الطبيب النفساني يعالج المصاب بالكلام ، فهو يخاطبه ، ونرى**

هذه المخاطبة تؤثر فى قوى كبيرة داخلية ، فتقهرها وتغيرها ٠ اذن فاللاوعى هو قطعا لغة من اللغات ، وليس عالما منعزلا نترجمه بلغتنا »

وراح بعد ذلك جون ديشون يضع لهذه اللغة نحوا هيكليا مثلما يفعل النحويون والفقهيون للغات تماما أعتمادا كما قلنا على أن اللاوعى لغة تحمل كلماتها وحروفها ومفاهيمها وعلى أن الهيكلية ترى فى « **الانا** » عالما وهميـــا يبنيه الانسان وينغلق فيه خوفا من الاخطـار الاجتمـاعية ولجـوءا للغـرائز « **الاوديبية** » والطفولية التى لعبت دورها الهام فى اقرار وتشييد هذا الوهم المسمى «**أنـا** » ٠

ونرى أن نذكر فى خلاصة هذه الفقرة كلمة قالها المفكر الهيكلى لوسيان سيباغ فى تعريفه العام للوجود البشرى حيث قال :

« **ان المجتمع يحكم من طرف هياكل أقتصادية ، كما يحكم الفرد مـــن طرف هياكل اللاوعى ٠٠** » فتصميم هذه الهياكل التى تملى مسيرة التاريخ من جهة وتملى سلوك الافراد من جهة أخرى ، ثم شرحها وتحليلها وضبطها فى لغة علمية هى التى جعلت آراء مفكرى الهيكلية تمتاز بالجدة والجدية وتنمو فى البحوث التى تلتها حيث أصبحت من مصادر علمـاء النفس الاولى ٠ وخـاصة للتعرف على مواضع الانتقال من الوعى الى اللاوعى ، أى التعرف على «**الهيكل**» ٠

النقد الادبى ومفهومه لدى الهيكلية :

يجب قبـــل كـــل شىء أن نعـــرف أن نقـــد الاعمـــال الادبيـــة لـــدى الهيكليـيــن يتجـــاوز المضمـــون المتعـــارف للنقـــد التقليـــدى ، وقد كان محاولة لفهم هذه الاعمال وابداء رأى شخصى فى محتواها،أماالهيكلية فتجعل من النقد طريقة بحث حضارية عن مدى أستيعاب الاديب لمشاكل وقضايا عصره ، ومدى تعبيره عن هذه المشاكل والقضايا ٠ ويجد الهيكليون ضالتهم فى الناقد النمساوى « **ليوسبيتزر** » المولود بفينا سنة 1887 ، وقـد تـــولى تدريس اللغة الالمانية والادب بجامعتى ماربورغ وكولونيا سنة 1930 كما درس نفس المواد بجامعتى اسطمبول وبالتيمور ، وتوفى بايطاليا سنـــة 1960 ٠ وأضاف سبيتزر الى النقد اشياء هامة هى ٠ أولا : أهمية الدراسة النفسية والاجتماعية للقالب اللغوى ، وثانيا ضرورة اعتبار المنتج يعيش زمنين : زمنه الداخلى الخاص وزمن الحضارة التى ينتمى اليها (15) ٠ وثالثا النظر الى كل عمل أدبى بأعتباره وحدة موضوعية والنظر الى كل منتج بأعتباره انسانـــا مستقلا فكريا ٠ ورابعا : تقدير عنصر القارىء بحـدسه وثقـافته ، وذلك من شأنه أن يمنح العمل الادبى اكتماله وتأثيره ٠

ويهتم سبيتزر من جهة أخرى بما يسميه هو نفسه «**حقيقة الخلق الفكرى**»

ويروح يستأصل هذه الحقيقة من الاعمال التى تناولها بالنقد ، اعتمادا ، على العناصر التى ذكرناها ٠

ولا نشك فى أن مصنف النقد الهيكلى بمعناه الجديد هو الناقد الفرنسى « هنرى ويبر » الذى يضع جملة نظرياته ويطبقها لدى سلفه سبيتزر ، ثــم يحوصلها فى مجموعة مبادىء أهمها (١6) :

« ان النص الادبى فى مفهوم الهيكلية ، هو ملتقى طرق السياســة والاقتصاد وعلم الاجتماع وفقه اللغة وتاريخ الافكار ٠ »

ولاعطاء صورة أوضح ، نرى أن نذكر فى هذا المساق دراسة نقدية قام بها ديديى أنزيو (Didier anzieu) فى مجلة (الازمنة الحديثة أكتوبر 65) حول روايات الآن روب غريى (Alain Robbe Grillet) نعدها نحن من النقــد الهيكلى حسب مفهوم ويبير ، حيث ان الناقد حلل كل رواية على حدة ، مستخرجا ما فيها من روح المؤلف وقضايا العصر ، ثم راسما خطا تحليليا لكل الروايات يوحد بينها ، ويجعلها أصيلة بحق ، توضح معالم شخصية روب غريى ٠ فنكاد نعتقد نحن القراء أن هناك بطلا مجهول الهوية يظهر عبر كل الروايات ، ويحاول فرض بذاته ، والبحث عن أصله ، وتحقيق وجوده على صعيد الميــلاد أو القتــل (وهما سبيلان متشابهان للتعبير عن التأزم) ٠ وبصرف النظر عن العنصر الاوديبى الذى رآه الناقد فى كل أشخاص الروايات ، مما جعله يجهد نفسه فى تحويل الاشخاص الى أطفال يتحركون حسب خط نفسى مرسوم ، فنحن نرى أن الطريقة التى أتبعها أنزيو هيكلية باعتبار أنه آهتم بالعنــاصر النفسية والاجتماعية والاقتصادية وتاريخ الافكار فى أعمال الروائى الفرنسى ، ثم انه اعتمد التعبير اللغوى طاقة حية من الحالات النفسية للكاتب ، ووضــع نفسه أخيرا فى مكان القارىء حيث استعمل حدسه وتخمينه وثقافته فى فتح الابواب الموصدة من هذا الادب الرائع ٠

ولمزيد الدقة فى موضوع النقد ، نورد تعليقا على مقال نقدى كتبــه الفرنسى رينى بالى (René Ballet) حول الرواية البوليسية سماه « **هياكــل الرواية البوليسية** » حلل فيه ظاهرة اقبال الجمهور على هذا النوع من الادب ، وشرح هذه ، « **الهياكل** » على ضوء العلاقات الاجتماعية السائدة فى الغرب ٠ يقــول بــالى :

« ان سبب اقبال الجمهور على الرواية البوليسية يعود الى أن هياكلها تضارع الهياكل الاجتماعية ٠ فالرواية البوليسية هى منوال مصغر وحقيقى للعلاقات الاجتماعية » ٠

ويتحدث بالى بعد ذلك عن العلاقة الثنائية الخالدة التى تصل الشعب بالسلطة فيشبهها بعلاقة اللصوص بالمجتمع الاقطاعى • مؤكدا أن أبطال الادب البوليسى يقتلون من أجل أن يعيشوا تماما كاى انسان ، ولكن بأكثر حدة تستهوى القارىء بمطابقتها للواقع المعاش داخل الدغل الحضارى المعقد • ويتعمق بالى أكثر فى موضوعه الشيق ، فيورد رأى أنتونيو غرامسكى الذى يقول :

« ان الروايات البوليسية المصورة بالنسبة لرجل الشعب ، هى بمثابة حلم اليقظة ، ومطالعتها هى نتيجة لمركب نقص اجتماعى ، ذلك يعنى أن قارىء هذه الروايات يحلم بفكرة الانتقام ، وعقاب المجرمين للذنوب التى ارتكبوها والتى يرزح تحتها القارىء بصورة غير مباشرة » •

ونلاحظ هنا صلة هذا النقد الهيكلى بآراء فرويد فى نظرية التعويض وحلم اليقظة وارادة القتل من أجل البقاء • ويدعم بالى نظريته هذه بمثال الادب الشعبى الايطالى الذى كان يتغنى ببطولة قطاع الطرق للتدهور الاجتماعى الذى كانت تعانيه ايطاليا فى القرن الماضى •

ابعاد الفن فى نظر الهيكلية :

لعل الهيكلية ، بعد تحديقها فى علوم الانسان ومشاكل تطور هياكله العقلية والعاطفية ، اتخذت من الفن مصبا لكل ذلك ، ومرآة تنعكس على صفحتها العذراء آماله وأمانيه ، لا الذاتية الضيقة فحسب ، بل على صعيد الانسانية جمعاء • وكالنقاد ، يجد نقاد الانتاج الفنى فى « فرانكاستال » أجدر من أدخل عنصر « الهيكل » فى نقد الرسم ، وأعطاه الابعاد التى يراها له الهيكليون فى مؤلفاته العديدة التى نذكر منها : « الواقع المرسوم » و « أشكال الفن وأشكال الفكر » و « الرسم والمجتمع » ونتأمل معا بعض نظريات فرانكاستال فى الفن ، لنستشف معا هذا المضمون الخصب الذى يمنح للخلق الفنى على يديه • يرى فرانكاستال أن الفن حركة ، انجاز ، فعل وليس حلما ، ويرى أيضا أن الفنان لم يعد يصف أو يعكس ، بل أصبح يريد أن يغير • ثم ان فرانكاستال لا يعطينا أمثال هذه الافكار النبيلة بسطحية المنادين بالالتزام ، بل بناء على تقدير عميق لرسالة الفن ، وبناء على الطاقات الخالدة الكامنة فى العمل الفنى ، التى تستطيع ان تصنع مصيرا افضل وأعدل للانسان وبعد أن يحدد فرانكاستال موقفه من العالم حوله ، يجد ان الوجود يفرض على الانسان ضربا من ضروب العبث واللامعنى ، فيرى فى الفن خلاصه الاوحد ، ويقـول :

« ان رسالة الفن تتمثل فى اعطاء شكل ووزن للكون ، ان العمل الفنى نظام فى حد ذاته •• » (17) •

وتذكر فى هذا الصدد أيضا بعض الخواطر التى أوردها الناقد الفنى سيرج بيروتينو الذى لخص « **الهياكل** » التى يمكن أن نجدها فى العمل الفنى قائلا أنها تتركب من عناصر ثلاث : المحسوس والواقع والخيالى • ويشرح هذه النظرية مؤكدا أن : **الفن يهدف الى خلق عوالم خيالية لا تنفى الواقع ، بل تمثل بالعكس تجاوزا ، لانها تحمل فى طياتها اختيارا انسانيا ••** » •

ويضرب لنا بيروتينو مثلا فى فن بيكاسو فيقول :

« **ان ما يضمن لنا فهم لوحة من لوحات بيكاسو ، ليس يسر الرسم أو طريقة التلوين ، ولكنه فهم « الهيكل » الذى يوحد بين العناصر التى ساهمت فى اللوحـــــة** » •

وهكذا نلمس من خلال آراء الهيكليين توضيحا لمشاكل الانتاج الفنى الانسانى وشحنا لهذا الانتاج بما يعتقدونه من طاقة عملية قادرة على ان تؤثر ، وتمس المشاعر وبالتالى تحول مسيرة التاريخ وتوجهه نحو الافضل والاسمى اعتمادا على ما فى الانسان من غرائز وعواطف وما له من امكانيات ودوافع • ويكفيهم فخرا أنهم درسوا العمل الادبى كما تدرس أية حركة اصلاحية قيمة فى ميدان تقدم الانسان •

قضايا الانسان والهياكل :

بعـد صـدور كتاب « الانتروبولوجيا السيـاسيـة » لجـورج بالنـديى ، (Georges Balandier) اتضـح أن طـريقـة البحث الهيكلية اجتاحت كافة العلوم الانسانية فربطتها بالواقع ، ونفت عنها الاشكال البالية والقوالب القديمة • زيادة على دخولها ميدان فقه اللغة حيث أعتبر الهيكليون أن اللغة جسم حى يولد وينمو ويفنى مع الحضارات كما نحلت الهيكلية ميدان الموسيقى فحددت الرسالة المنغمة التى يبلغها الفنان للجمهور • وأعتبر جورج بالنديى أن السياسة يمكن أن نمنحها أستقلالها كهيكل يساهم فى توجيـه التاريخ ، وليس فقط نتيجة للعوامل الاقتصـادية والجغـرافية والحضـارية الاخـرى •

هكذا نخلص للقول أن الهيكلية كطريقة بحث علمى رصين ، أثبتـت لا محالة جدواها وجدة عناصرها وينابيعها ، فهى التى أعادت للعلوم الانسانية وزنها بعد أن ظن الناس أن العلم والتقنية لم يعودا يؤمنان بالانسان جوهرا اصيلا لبناء الحضارة • ذلك أن التقدم التقنى فى نظرنا الخاص بعدما نبذ الماوراء وتعرف على مغالق الامور والغاز الوجود ، عاد من جديد ليضع أمـامه مـاوراء آخر لعله اشد حدة واعمق أثرا • عاد هذا التقدم الذى كان ينوى رفع الانسان

على عرشه ، عاد ليتجاوز الانسان ، ويستحق حريته وجوهره الاصيل ·· فآمن أن العجلة الاقتصادية العملاقة لا ترحم ، بل تدور دوراتها الساحقة الجامدة ، وجعل من هذه العجلة إلاها جديدا عوض إلاه القديم فى شكل دينى آخر · ثم جاءت الهيكلية كطريقة بحث ، فأعادت للانسان (الفرد والمجموعة) رسالته فى تشييد هرم حضارته وتاريخه ، مع نفى التفاؤل المجانى ، ووضع شروط جسيمة لتحمل هذه الرسالة · ونرى أنه رغم حداثة هذه النظرة وقلة ما كتب عنها وفيها ، فهى تشكل أداة عمل ، وتحليل وتنقيب وبحث فى الحقيقة ككل اداة اكتشفها الانسان ، لكنها تصل لطور الشمول الفلسفى لا بما حوته من مواضيع ولا بما واجهته من قضايا خطيرة ، ولكن وأبعد من ذلك بايمانها بأن الانسان هو المحور الرئيسى للحضارة ، ومن هنا يجب أن يمنح فرصته فى تغيير وجهة هذه الحضارة ، نحو الافضل والاجمل والاصدق ·

احمد القديدى

(4 نوفمبر 1968)

(*) أهملنا فى هذا البحث جانب فقه اللغة والاقتصاد عمدا لاننا ننوى تخصيص موضوع فى هذا الشأن ·

(1) charles parain, La pensée, octobre 1967
(2) Engels, lettre à H. Strakenburg. 25/1/1894.
(3) » dialectique de la nature, ed. sociale 1952. p. 50.
(4) les mots et les choses, M. Foucault.
(5) « La philosophie est l'Histoire des soumissions humaines »
(6) C. Levi - Strauss, tristes tropiques p. 424.
(7) Nicos Poulantzas, les temps modernes, Mai 1966.
(8) Roger Garandy, La pensée, octobre 1967.
(9) Jean Pauillon, temps modernes nov. 1966.
(10) Noel Mouloud, La pensée, octobre 1967.
(11) les mots et les choses
(12) Roger, Les sciences de la vie dans la pensée française du XVIII siècle, A. Colin, ed. p. 748.
(13) Engels, Dialectique de la nature.
(14) Politzer, l'inconscient p. 95.
(15) Spitzer, Romansche litératur studien, Tübingen
(16) H. Weber, La pensée, oct. 1967.
(17) Francastel, La réalité figurative p. 174.

صلاة ثانية للحرف المناضل

شعر : الطيب الرياحي

مهداة الى الاخ الشاعر أحمد القديدي بمناسبة قصيده «صلاة للحرف المناضل» الذي نشرته «الفكر» في عددها الاخير.

الكلمةُ لَيْسَتْ جاريةً حسْناء
كانَتْ في ظِلِّ الحُرِّيَّة
تجْري . . تلْعَبُ . . كانتْ عذراءْ
كانَتْ . . وسَبَاها الاعْداءْ
في إحْدَى الغاراتِ الليلية . .
والآنَ تُباعْ
يَعْرِضُها النّخّاسُ على التجّارْ
يَعْرِضُها دُونَ إزارْ . .
في سُوقِ ذئبيّة .
الكلْمَةُ لَيْسَتْ مومسةً عمياءْ
تتعَهَّرُ في لَيْلِ الحاناتْ
تَكْشِفُ عورَتَها ،
تَضْحَكُ في المَيْدانْ . .
وتُعَرّي ثَدْيَيْها ،
تَحْفُرُ أعْصابَ العميانْ . .
أبَداً لَيْسَتْ صُنْدوقاً مقفولْ
يحْوي أدَوَاتِ التَّجْميلْ
أدَوَاتِ التَّزْييفِ العَصْريّة
يحْمِلُهُ تُجّارُ الكلماتْ
وذَوُو الاحْلامِ الارْضيّة . . .

الكلْمَةُ في عَصْرِ الاقْمارْ
الكلْمَةُ لَوْ يَدْري التُّجّارْ
فَوْقَ الاشياء وفوْقَ الاسْوارْ . .
الكلْمَةُ اعْصارْ
يقْتَلِعُ الاعْشابَ البرّيّة
يَعْصِفُ بالابْراجِ العاجيّة
ويَهُزّ قِلاعَ الاشْرارْ . .
الكلْمَةُ عِمْلاقْ
يَهْتِكُ أسْتارَ الغَيْبْ
ولَهيبٌ يجْتاحُ الآفاقْ
ويَرُدّ الثّعْلَبَ والذّئْب . .
الكلْمَةُ عَيْنٌ حُلْوة
تتَفَجَّرُ في دَرْبِ الظّمْآنْ
تَرْويهِ وتُعْطيهِ القُوّة
كي يَفْقَأَ عَيْنَ السُّلْطانْ
الكلْمَةُ حُبّ الاشْلاءْ
حُبّ الاطْفالِ الفُقَراءْ
المَجْدُ لها ولِقائِلِها الانسانْ

ط. ر.
– تونس –

ماجد ، والشاعرية الحق

بقلم : إبراهيم بن مراد

من مظاهر التخلف فى ميدان النقد لدينا ، إقامة الحجب المدعوة بحجب المعاصرة بين الادباء والفنانين • فانت قلما تجد اديبا يقول فى صديق له كلمة الحق التى يجب ان تقال فهو أما ان يمدح ، او ان يصمت ! ولعل لهم عذرا أيضا ، فأنت قلما تجد من ادبائنا من « يرضى » أن تقال فيه الكلمة التى يجب أن تقال ، بكل تجرد ••• فاما أن يشكر ، او ان يسكت عنه ! ومن المؤكد ان هذه الظاهرة : قد ادت الى نتيجة لا تحمد ، اذ نلاحظ — فى هذه الفترة الخصبة من حياتنا الادبية • ان الآثار التى تنشر تقع فى الاول فى الوسط الادبى ، فتستقبل بالتصفيق والترحيب • وتلهج بها النوادى والصحف مدة او بعض المدة ، ثم « تترك للتاريخ » ! ولو تجمع الكلمات التى تقال فى أى أثر ، سواء فى الاذاعة او فى الصحافة او فى النوادى ، لما كفت حاجة ولا أفادت دارسا •• فهى ضرب من « التهانى » و « التحيات » وكلمات الثناء تغدق مجانا • وذلك بدعوى التشجيع على مواصلة الطريق ! ولكن الى متى هذا التشجيع ؟ فكم من سنة مرت لحد الآن على قصة « حليمة » ، وكم مر من زمن على ديوان « قافلة العبيد » وديوان « قلب على شفة » ، وكتاب « رسائل الشابى » وغيرها وغيرها ••••؟؟ وهل قام رغم ذلك من حاول ان يدرس الدرس الموضوعى الجاد ، محاولا سبر الاعماق وكشف الحقائق ، التى لا يخشاها الا ضعاف العزائم ؟ أم أنها الظاهرة التى نحاول ان ندافعها وندحضها دحضا تأبى الا أن تتمركز وتثبت كيانها ، وهى انعدام النقد الحقيقى لدينا ؟

وهذا ديوان « نجوم على الطريق » قد مضى على صدوره ما يزيد عن الاربعة أشهر • وقد سبقه ديوان « حنين » بكثير • ولكن ، رغم ما لحق صاحبيهما من « كلمات التشجيع » وما يرضى غرور الفنان فيهما • فانه لم يقم لحد الآن من يدرس هذين الاثرين الدرس الذى يستحقانه • وفى هذه الالمامة ، سأحاول التعرض بالدرس لديوان « نجوم على الطريق » على أمل العودة الى دراسة بعض الآثار الاخرى من ادبنا الذى لا يعترف به بعض الناس « المتشائمين » • اذن ، فما هى العناصر المكونة لشعر جعفر ماجد ، وما هى خصائص شعره الفنية ؟

— I —

ماجد ، بين التجربة الفردية والتجربة الجماعية :

لقد كانت مقدمة الديوان غمرا من الاضواء على شخصية الشاعر • وذلك

مما يوفر على الدارس عناء البحث عن بعض الحقائق النفسية عن شخصية الشاعر ٠

يقول الاستاذ مزالي : « **وابرز مظاهر شاعريته سرعة انفعاله مع الكون المحيط به وعفوية تعاطفه مع الطبيعة والانسان وعمق تأثره بالاشياء والاحداث** » (I) ومن ذلك نفهم السر الذى جعل جعفر ماجد « **يحوى الوجود فى جبته** » ! فالديوان شاهد بهذا الشمول الذى تميزت به نظرته الى الكون ، فلم يكن الشاعر الضارب على وتر واحد ، بل كانت أحاسيسه الممتدة الى أعماق الوجود نابضة بشتى الانفعالات السارية فى شرايين الكون ٠٠٠ فهو ليس البذرة النابضة فى تربة القيروان الخصبة ، المنفعلة بها ، المتفاعلة معها ، فحسب ، بل هو البذرة فى تربة الوجود ، تمتد الى الاعماق ، لتذوب فى الحياة ، الكل ، شغفا بها ، وفناء فيها ، والوجود الملء ، تعاطفا وشمولا له ٠٠٠

ولكن ، رغم ذلك ، فان الناظر لهذه النجوم الشقراء يراها ـ فى أماكن من الديوان ـ اجلى واسطع منها فى أماكن أخرى ٠٠٠ وذلك من طبيعة كل شاعر ، فهو ـ وان شملت رؤيته الوجود فى كل مظاهره ، وبكل أعماقه ـ فان أنغامه تكون على وتر أعذب منها على وتر آخر،ونبضاته تكون فى عرق برهة أعمق منها فى آخر ٠٠٠ ولذلك فان جعفر ماجد فى مذكراته السياسية والاجتماعية وفى صفحاته القيروانية ليس مثله فى صفحاته البيضاء ووروده الذابلة وما عداها ٠٠٠ ولذلك كان وجود تلك المذكرات قلقا فى الديوان ٠ لاننا ـ رغم شمول انسانية ماجد فى كامل قصائد الديوان ، اذ لا توجد الثنائية التى تكون جعفر الشاعر وجعفر الشخص ـ نلاحظ انقسام الشاعر الى ذاتين : ذات اجتماعية لا تخلو من زيف إذ أنها تمثل رواسب المجتمع التى ورثها واكتسبها من المحيط والبيئة ، وذات أصيلة متصلة بأعماق جوهره ٠٠٠ والفرق بين الذاتين هو الفرق بين جعفر ـ الشاعر الاجتماعى ـ وجعفر الشاعر الحالم ٠ والشعر الحق هو احتيال على الواقع بالخيال ، فهو الحلم تخلصا وهروبا من حالة الاحساس الحاد بالواقع ، الى حد الشقاء ٠٠٠ وهى الحالة التى عبر عنها جعفر :

« **آيا ربى ، من لى بحس ، فحسبى حين يلوى الصداع جد رقيق** » (2)

وهى الحالة التى عبر عنها الشابى من قبله بصورة اوضح :

(I) مقدمة « نجوم على الطريق » ـ بقلم الاستاذ محمد مزالي ـ ص 8 ٠

(2) « نجوم على الطريق » ـ جعفر ماجد ـ ص I4I ـ ط I ـ الدار التونسية للنشر ـ 1968 (تونس) ٠

« والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي » (3)

اذن ، فالشاعر ـ حالما ـ أصدق منه اجتماعيا . وكذلك جعفر . وهو نفسه يعبر لنا في افتتاحية الديوان عن هذا الحلم الذي امتلأت به ذاته الحقيقية :

« أحيا على حلم ، لكم يغفو به نور القمر ،
« الليل واحته واهداب الكواكب والسهر ،
« لكنه ابدا يطير مهفهفا في اللامقر » (4)

لذلك ، فستكون نظرتنا الى اجتماعيته عرضية ، ما دامت لا تشف عن ذاته الاصيلة .

وتبرز مظاهر هذه الاجتماعية بجلاء ووضوح في صفحاته القيروانية إذ أن فيها تعبيرا صادقا عن موروث الصلة بين « أنا » الشاعر الثابتة (Le Moi Profond) ومجموعة الغرائز والطباع التي خلقها فيه المحيط او البيئة التي نشأ فيها ، وساعدت على تكوين وإنماء أنا ـ ه « المتحركة » السطحية (Le Moi Superficiel) . فشعوره بأصالته بذرة في أرض القيروان هو شعور كل انسان بأصالة التراب فيما يحيط بجوهره من سياج . وفناؤه حبا للتربة التي ينتمي اليها هو حنين كل انسان للارض التي انبتته ، منذ خلق آدم من تراب ...

« بلادي عدتك عوادي الزمان ولا خانك الفوز يوم الرهان ،
لأنت جمال الحياة بعيني وفاتني قبل كل الغواني ،
عددت الحسان خلال العصور فلم ألق مثلك بين الحسان ،
... أنا بذرة في ثراك الخصيب رضعت بثدييك سحر البيان ! » (5)

وليس ما في هذه الصفحات القيروانية من بقية غير امتداد لهذا الحنين ، وتعديد لألوان هذه العلاقة ، وما يلازم ذلك من ذكر لأسباب هذا الحنين وتبيين لأعماق تلك العلاقة وأبعادها . وقد اجاد الرسام ـ الذي تمنيت ان لو ذكر اسمه كاملا واضحا ـ الى حد ما ، في تشكيل ذلك (6) ونفس الذي وجدناه في « الصفحات القيروانية » من حنين الى « المنبت » وشوق الى الارض ، وتعلق

(3) « أغاني الحياة » ـ لأبي القاسم الشابي ـ ص 151 ـ ط 2 ـ الدار التونسية للنشر ـ 1966 (تونس) .
(4) « نجوم ... » ـ ص 17 .
(5) « نجوم ... » ـ ص 29 .
(6) الرسم الموجود على الصفحة الفاصلة بين صفحتي : 20/21 من الديوان .

بالتراب ، نجده فى « مذكرات فى السياسة والمجتمع ، ولكن بشكل أوضح هاته المرة وفى اطار اكبر ٠٠٠ اذ انطلق من اطار « المحلية » الى الاطار الكونى الاشمل ٠ ولكن الاطار الاول ازهى الوانا وأعمق أبعادا ، اذ كانت الرؤية اعمق والتجربة أصدق ٠٠٠ وهو ما يؤسف ، اذ أن جعفر ما زال يفرق بين البعوضة والجمل ، والذرة والجبل ، فيرى فى عالمه سدودا تقوم وحدودا تفصل بين أجزاء الكون والانسانية ٠ وعندما تزول دنيا الفوارق والفواصل عن بصيرته ، تنقشع الحجب وتتمزق الاكفان عن بصيرته الواعية ، فيكتمل شمول نظرته الى الكون ، ويرى صغير الوجود ككبيره ، وحقير الكيان كعظيمه ، اذ الحياة اقنوم واحد ، وناموس موحد ٠٠٠ وعندئذ يكون حديثه عن هوريشيا ولوممبا وجيل الثورة ، كحديثه عن صقلية وبنزرت ، وعندئذ يكون حديثه عن هذه جميعا فى حرارة وصدق حديثه عن القيروان ٠٠٠

تلك هى ألوان الاطار الاجتماعى الذى ترعرعت فيه « انا – ه المتحركة » – الزائلة – والذى غذى تجربته الجماعية ٠ وهى ألوان لا تمدنا الا بظل باهت لاناه الثابتة الدائمة ، ذاته الاصيلة ، التى تظهر بشكل واضح فى ما تبقى من عقد النجوم ٠٠٠

وتحاول أن تستشف هذه الذات ، فتراها تطل عليك من افتتاحية الديوان – التى تصلح ان تكون خاتمة « ملحق خير » للديوان ، أيضا – حائرة ، قلقة ، أمام تمزق الشاعر الى الثنائية التى يعيش إزمتها كل انسان : الحيوان الذى يشده الى اسفل ، والاله الذى يجتذبه الى أعلى ٠ وهو الصراع الدائم فى الانسان بين التراب ، الطين أصله ، وعالم الكمال ٠ فالشاعر يحيا على حلم ، هو حلم كل شاعر بالعالم المثالى الذى يريد الفرار اليه ، بخياله من الواقع ٠٠٠ وقد خلق ذلك العالم فى خيال جعفر – ككل شاعر حالم ، من الهاربين الى هذا العالم – :

« أنا فى الليل افترش الخيالا وأغزل من اشعته ظلالا
« وأملأ من نجوم الافق جيبى وأركب عند مرفئه الهلالا ،
« فأقلع مثل ملاح غريب مدى الايام يحترف الضلالا » (7)

فجعفر اذن يعيش على حلم ٠ هو الحلم بهذا العالم الخيالى ، الذى لك ان تسميه عالم المثال ، أو أتوبيا (Utopie) الخيالية ٠ ولكن الثنائية التى تمزقه توقفه حائرا أمام مفترق الطرق :

---

(7) « نجوم ٠٠٠ » – ص 66 ٠

« شيء بعيد كالقريب وحاضر مثل البعيد ،
« أحيا له كالطفل يحيا للدمى في ليل عيد ،
« وعلى فمي هذا السؤال أعيده :
ماذا أريد ؟ » (8)

فأى طريق سيسلك لتحقيق هذا الحلم ؟ وأى حلم تراه سيحقق ؟ وأى جزء من ثنائيته - الا له الهاجع فى ذاته الاصيلة ، والحيوان الكامن فى ذاته الزائلة - تراه سينتصر ؟ ذلك ما سيجيب عنه الشاعر فى الاجزاء الثلاثة الباقية من الديوان ٠

ونظرة مجملة نلقيها على هذه الاجزاء الثلاثة ، نتبين من خلالها وجود ثلاث مراحل قد انقسمت اليها حياة الشاعر ٠٠٠ وأولى تلك المواحل هى التى صورها فى « الصفحات البيضاء » ٠ فهى فترة شبابه الاول ، أو هى فترة تفتحه على الكون ، التى بدأت فيها قوادم خياله تمتن وتصلب ٠ وبدأت فيها شاعريته تتفتح على الوجود تغريها ابتسامات الحياة ودغدغات انسامها ٠٠٠ ولكن الواقع الذى كان يعيشه الشاعر آنئذ لم يكن باسما ٠ فقد عاش على اليتم عصاميا يجاهد قساوة الحياة ٠ ولكن القدر أراد ان يقسو عليه اكثر فى امتحانه ، فما أن بلغ سن المراهقة حتى « لسعه الحب بجمرته الملتهبة ، فعرف ما وراء الشهد من وخز الابر ، وأن الحب يقف بصاحبه على حافة الهاوية ، فاما ان يدفعه الى الاعماق أو يقفز به الى الجنة الفيحاء » (9) ٠ اذن ، فقد رمى القدر المرأة على دربه ، فكانت حكاية قلبه ٠٠٠ وليس لدينا ما يثبت أن الشاعر كان « ناجحا » فى حبه ٠ بل إن الاستاذ مزالى يقول : « **ولم يظفر ماجد دائما بما كان ينتظره من المرأة ، بل كثيرا ما خابت مساعيه** » (10) ورغم ما فى كلمة مقدم الديوان من تعميم للمراحل الثلاثة ، فان هذه الكلمة تضيء لنا جانبا من المسألة ، فى المرحلة الاولى بصفة خاصة ٠ فلو ظفر الشاعر من المرأة بما كان يحن اليه قلبه من الحب ، لما احتلت بعض القصائد وكثير من الابيات محلها من هذه الصفحات البيضاء ٠ ونحن أمام موقفين لا مفر من احدهما : اما ان نتهمه بالشهوانية المفرطة ، فيكون ما قاله من أبيات مفرطة الاباحية نتيجة طبعه الشبقى - أو ان نعتبر ما صدر عنه أحاسيس ومشاعر محروم عطش ،

(8) « نجوم ٠٠٠ » - ص 18 ٠
(9) انظر : « عكاظية تونس لسنة 1959 » - المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية - ط 1 - ص 237/238 - تونس - 1960 - ومقالا عنه بقلم : صالح القابسى ، فى مجلة الفكر - ع 4 - س 13 - جانفى 1968 ٠
(10) مقدمة « نجوم ٠٠٠ » - ص 11 ٠

تواق ··· وأعتقد أن خيبة الشاعر فى حبه الاول ، هى التى ولدت لديه هذا « الكبت » الذى جعل أبياته فى هذه المرحلة المبكرة تتفجر عنيفة ، خاصة اذا عرفنا أن « **وظيفة الكبت ··· هى منع النزعات النفسية من السير فى طريقها الطبيعى · وهذا المنع لا يقضى على النزعات النفسية ، فهى تظل قوة متحفزة للظهور ولكنها تبقى مع كل هذا مختفية بما يسمى باللاشعور · وهى تحاول فى كل وقت ان تطفو على السطح وأن تظهر بصورة ايجابية · ولكن الذات العليا (والأنانى بعض الاحيان) ما دامت منتبهة وواعية ، فانه لا مجال لطفوها وتحققها** » (11) · غير أنها عندما تمتزج بالموروث الغريزى وتتحد بالطبع الجبلى ، فى اللاشعور ، فانها تتخذ ثيابا رمزية وتتسرب الى الخارج فى أعمال الفنان عن رغبة منه أو كره · وأنت عندما تقرأ لماجد قصيد « عالم فى خيالى » تبدو أمامك نتيجة هذا « الكبت » واضحة ، اذ أنه يعبر بصورة واضحة عن « الحرمان » من المرأة وتوقه الى عالم الانثى ، فهو عالمه الخيالى الذى يهرب اليه ــ مفترشا خياله ــ تخلصا من الواقع :

« ··· وأرمى فى شواطىء سندباد بعيدا حيث لا أجد الرجالا ،
فاترع من زلال اللحن كأسى وآكل حين أقتات الجمالا ،
« وأضرب باليدين هنا فتجرى جوار ينحنين لى أمتثالا
« نحيلات كلألاء المرايا عوارى لسن يحملن النعالا
« ··· وأفترش الشعور على ضفاف شربن الغل ماء حين سالا
« وتلتحف النهود رياش غيم فاسرق من غلائلها الغلالا » (12)

فهو إذن هذا التوق الذى عبر عنه جعله يقول :

« أنا من تركت احتراق وعصف يدمرنى فى الظلام الشتاء
« أنا نفخة فى دخانى عليها تموت الحياة ويطوى الفضاء » (13)

وهى نفس الاندفاعية ــ وليدة ذلك الكبت ــ التى انطقته فقال :

« مضيت ولم تعرفى من جنونى سوى نظرات تهاوت عليك
« لتنهل من شفتيك ابتساما وتبكى جياعا على حلمتيك ،
« وكانت دمائى دخان لهيب يذوب أحمرارا على وجنتيك » (14)

---

(11) « التفسير النفسى للادب » ــ بقلم : الدكتور عز الدين اسماعيل ــ ص 47 ــ ط 1 ــ دار المعارف بمصر · 1962 ·
(12) « نجوم ··· » ــ ص 66 ·
(13) « نجام ··· » ــ ص 54 ·
(14) « نجوم ··· » ــ ص 56 ·

ولكن هذه النزعات النفسية تطفو أحيانا ، لديه ، على الذات العليا ، والأنا ، فيرتج عليه ، اذ يعصف به عاصف :

« حتام يا مغـرورة يصطادنى النهد الاسير ،
« قد كان يشكو أسره فقطعت أغلال الحرير ،
« أنا لا أموت بحبه فى حصة العمر القصير ،
« النهد يحسره القميص ، فيعتلى كالمستجير ،
« يهتز فى أغلاله ويهم ـ رغمك ـ أن يطير ،
« لا تخجلى ، هل يمنع التيار زمجرة الهدير ؟
« واستنزلى النار الاكول،فما الذك من سعير ! »(15)

إنها عاصفة لا تبقى ولا تذر ، يمحى عندها كل ما ورثــه من أرض المنبت من إيمان وحياء وطبع قروى :

« أنا شاعر حسبى الهوى والخمر واللحن المثير ،
« اطعمت نفسى بعضها وكفرت باليوم الاخير ! »

فهو إذن يخرج من جولته هذه وقد عرف المرأة لحما ودما ، ولكنه لم يعرفها قلبا ينبض حبا وحنانا يغمرانه فينقذانه من عالم الاوحال ، والحرمان · وهو لذلك يقف أمام نفسه حائرا وفى يديه قبضة من ضباب وخيبة ، فى لهفة الى « المطلق » وتوق الى اللامحدود ، وهو نتيجة الصراع فيه بين الملاك والشيطان ، بين الثنائية الخالدة : الاله والحيوان ·

واذ أخذنا هذه النتيجة بعين الاعتبار ، تبين لنا فى غير لبس اللون الابيض لهذه الصفحات ، فهى صفحات ايام الشوق ، والحنين الاكبر ، يغذيها شباب طموح ـ بكل ما فى الشباب الطموح من اندفاع وذبذبة وحيرة وقلق وجودى ـ لما يتجاوز طور المراهقة التى ساعدت الظروف على ان تكون حالمة ، شـاعرية فتمتزج فيها شتى الالوان والاحاسيس ··· وتمتزج فى مخيلة الشاعر الطبيعة والمرأة ونزعة التوق الى المطلق :

« يـا ليتنـى فـى المـوج أغنيـة ينساب فيها الحب والشغـف » (16)

وقد تتجرد نظرته الى الكون أحيانا عن العالم المادى المحض ، إذ يحـاول « الشيء الكبير » الذى يحيا بقلبه ، وهو مجموعة أشـواقه اللافحة وحنينه

(15) « نجوم ··· » ـ ص 79 ·
(16) « نجوم ··· » ـ ص 52 ·

الاكبر قد اتحدت فى أناه الواعية كلا ـ أن يرتفع به عن مستنقعات الارض ، وروائح الغريزة والتراب ، ليذوب فى المطلق شعاعا ، ويفنى فى اللانهاية سرا :

« زرقة فى الماء تغرى   باندفاع من يراها ،
« فوقها الامواج تجرى   ثم تفنى فى مداها ،
« ليتنى قضيت عمرى   تائها فى منتهاها
« فوقها كالنور يسرى   دونما أدرى اتجاها ،
« جامعا مدا لجزر   مازجا نفسى بماها » (I7)

بل إن هذا التمنى ليتمثل له أحيانا حلما قد تحقق ، الى حد الاحساس بأصالة اتحاده والوجود ، ومطلق ذوبانه فى عالم الصحو ، بسمة الله ، فيشعر بنفسه حرا انعتق من حدود اللحظة ، وأبعاد المكان :

« كلما فى البحر يرمى   ناظرى المضنى الكليل ،
« أشتهى ان تستحما   مهجتى فى المستحيل ،
« وأخل فى حذائى   كل أصناف التراب
« وأغنى فى الفضاء   بحناجير الشباب :

« إننى يا بحر حر ! »

« ••• وإذا هاجت رياح   واستبدت بالفضاء ،
« ارتمى مثل الجناح   فى متاهات البقاء ،
« فأرى هذا الشروق   وأرى هذا الغروب ،
« وأغنى فى البروق   وعلى كل الدروب :

« إننى يا ريح حر ! » (I8)

إن ذلك الطور المزدوج الذى ولده الصراع بين الثنائية هو الذى كون له أحلامه الشاعرية الجانحة ، وجعل صفحات تلك المرحلة من حياته بيضاء • فهو الحالم المتخيل لعالم باسم عذب بعيد عن التجهم والعبوس • وإذ ارتبط ذلك الحلم فى المخزون اللاشعورى لديه ، بحكم طبيعته الشاعرية ، بحياته الواقعية التى ما كان يحسد عليها ، فقد تولد عن ذلك شعور بالسعادة الروحية التى تعيش فى خياله ، ويحيا على طيفها ، وقد ساعد على انماء ذلك الشعور

(I7) « نجوم ••• » ـ ص 50/49 •
(I8) « نجوم ••• » ـ ص 86/85 •

احساس الشاعر بخفة كاهله من ثقيل الحياة ، الذى تولده فيه رقة الحس المفرطة ، والتى ما زالت لم تتبلور بعد ولم تتميز ملامحها لدى الشاعر ...

تلك هى الالوان التى اصطبغت بها هاته المرحلة من حياة ماجد الشعرية . صراع بين الارض والسماء ، بين المطلق اللامحدود ، والتراب المشبع بروائح الغريزة والجنس ، أسطورة الانسان ... يغذى ذلك كله توق الشاعر الى عالم مثالى ، عالم شعرى حيث يعيش طفلا يلهو ... « والليل مغسى » ، وحرمان من قلب المرأة قد غذاه « الكبت » الذى عاناه فجعله يتوق الى أبعد ...

ويشاء القدر لماجد أن يمر بمرحلة أخرى من حياته ، يتغلب فيها أحد جزئى الثنائية فيه ، وينهزم الآخر انهزاما ذريعاً ... إذ يتوجه الشاعر الى باريس طالب علم ، وهو على ما هو عليه من تعطش وحرمان ونهم حواس شابة ، وليس من اليسير عليه ان يصمد أمام تيار الحياة القرفة الذى يجتاح العالم المجنون الذى اندس الشاعر بين طياته . فهو عالم يعيش على أعصابه ، قد طال ظله والتد ... يصرف جل وقته فى الاقبية والحانات ، يهب أنفاسه لليل ، وينهب الشبق والحيوان ثوانيه الغالية ... هو عالم شتائى الضياع ، شيطانى مرعب :

« باريس حمراء وفجرها أزرق ،
« تعيش فى كأس وتشرب المطلق ،
« فى كل ما مقهى شبابها يحرق ،
« بشعرة تلوى بقبلة تسرق ،
« عيونهم حيرى وقلبهم مرهق ،
« شفاههم جمر دخانها يعبق ،
« ... عروق ايديهم تهم ان تنطق ! » (19)

فى هذا العالم ، يشتد الصراع بين الثنائية فى نفس الشاعر ، إذ أنه أمام مرحلة حاسمة ومصير لا يعرف كنهه :

« وخلف فنجان أنا هنا مطرق ،
« أنوء بالدنيا وسرها الاخرق ! » (20)

ولكن النتيجة كانت سلبية ، إذ ينتهى الصراع بانتصار الحيوان فيه على الانسان الاله ، ويميد عالمه المثالى الخيالى ، لينهار ، إذ يقبل نهما على واقعه

(19) « نجوم ... » ـ ص 113 .
(20) « نجوم ... » ـ ص 114 .

يعيشه ، ينغمس فيه مخلصا ، يمحي في ظلـه ويفنى ، إذ تعـربد به هـوج العواصف في هذا العالم الاحمر ، فيقذف بنفسه فى اعماق غريزته ، ويتيح لنهم حواسه أن يمتد ، ويقبل على الجسد يمزقه تمزيقا ٠٠٠

« ولهبت معـي أبـدا أبـدا لـم أعـرف مثـل بـراكينـي ،
« شفتـاك عصـرت دمـاءهمـا قبـلا فـي كـل شـرايينـي ،
« فكـي دنتيلـك آنستـي عن هـذا النهـد المجنـون ! » (21)

إذن ، فقد عرف هناك المرأة بلحمها ودمها ، لقد عرفها واقعا ، لا حلما٠ فعاش معها مرحلته هذه أياما حمراء الشفق ، ولكنها صفراء الأفق ، لا تبشر بخير ، ولا تنبىء بميلاد ما كان يطمح اليه الشاعر من طمأنينة ٠٠٠

وهكذا تكون صفحات حياته الباريسية مرحلة حاسمة من مراحل حيـاته الشعرية ، بل إنها لتعتبر نقطة تحول فاصلة من جعفر الطفل الذى لا ينـوء كاهله بثقل الحياة ، الى جعفر المهموم الذى انكشفت له حقيقته عن حلم زائف ، جعفر الذى ينظر حواليه فيرى القتام يسد عليه منافذ البصر ٠٠٠

وتظهر الملامح الجديدة لشخصية جعفر فى مرحلته الثالثة ، التى عبر عنها فى « ورود ذابلة » ولست أدرى لماذا أراد الاستاذ عبد العزيز قاسم أن يخفف من حدة هذا الذبول ، وأراد أن يترك هذه الورود بلا نعت ! (22) فهذه الورود فى نظرى ذابلة الى الحد الاقصى ، وكيف لا وهى تمثل أحـلام الشـاعر التى ذبلت ، وأطفأت الخيبة التى أصابته ابتساماتها ؟

أجل ! إن الشاعر لم يخرج من باريس سالما ٠ فقد أعقبته التجـاوب التى مرت به هناك ، وأورثه الواقع الذى انغمس فيه ، آثارا نفسانية غير محمودة ٠ لقد دخل باريس طفلا ، فخرج منها كهلا ٠٠٠

ونحن كنا قد رأينـاه فى المـرحلة الاولى يحلـم بالكثيـر ٠ بالحب الحقيقى بالسعادة الروحية ، والدعة والطمأنينة الشعريتين ، يملأ قلبه حنين أكبر الى عالم خيالى يغمره الحنان والحب ٠٠٠ ذلك هو الحلم الذى كان يريد أن يحقق ٠ واشتد فيه الصراع بين الحلم والواقع ما أن تفتحت نفسه لذبذبات الحياة ٠ ولكن « الموجه الاعظم » شاء له سلوك طريق شـائكة لتحقيـق ذلك الحلـم ، وكأنه يريد امتحان عزيمته على الصمود أمام التجارب التى تقضى على « آلأنـا

(21) « نجوم ٠٠٠ » ـ ص 111 ٠
(22) الفكر ـ ع 1 ـ س 14 ـ ص 62 ـ عبد العزيز قاسم ٠

الملء » فى الانسان ، وتزيد « الأنا الخلاء » فيه آمتلاء بالفراغ والجدب . إنه لم يسلك الطريق التى تمهد لأناه ان تتمركز ، والى ذاته الدائمة ان تتحد بذاتها وجودا كلا . بل إننا نراه قد عمل على تعديد ذاته وتقسيم أناه الى ذوات و « أنوات » تطل به على عوالم اللامعنى والقرف ، وآفاق اللاجدوى ... وبذلك تكون الطريق التى سلكها لتحقيق حلمه خاطئة ، وبذلك يكون حلمه قد انكشف عن مخلوق مشوه زائف ، يمثل فشل الشاعر وخيبته الصارخة .

ذلك ما نلمسه فى هذه الباقة الحزينة من الورود الذابلة . فهو بعد رحلته الطويلة عبر المدى الشعرى ، عبر إطار تداخل فيه المكان والزمان تداخلا مضطربا عنيفا ، فقامت لذلك صور ومشاهد فى حياة الشاعر ، مرت على أجفانه المتعبة ، فكانت جزءا من أحلامه ، وبعضا من انفاسه . بعد تلك الرحلة الطويلة عبر عوالم الكلمة والحرف ، وما يعتريها من توالد واندثار كل رفة جفن وطرفة عين ، يرجع الينا الشاعر وفى يديه قبضة من الضباب والخيبة ... واننا لنلمس مدى عمق هذا الشعور بالخيبة لدى الشاعر عندما ننظر الى الفارق الذى يوجد بين جعفر فى صفحاته البيضاء ، وبينه فى هذه الصحائف الباهتة اللون ، وهو الفرق بين الطفل والبالغ ، او عالم الطفل وعالم البالغ ... فقد كان فى عالمه الاول لا يشعر بمرور الزمن عليه وفرار البرهة من ايامه المعدودات بالصورة المهولة التى أضحى عليه عالمه الحالى . كان يصطاد اللحظات الباسمة ، وكانت أيامه الطفلة تصطبغ بألوان أحاسيسه ومشاعره أحلام يقظته :

« عندما كنت لا أحس عنائى باجتناء الورود والبسمات » (23)

أما الآن فان قلبه قد امتدت جذور احساسه بالكون من حواليه أكثر من ذى قبل ، فأصبح يسع الكون ويحمل الوجود بكل ما يعتريهما من التناقضات والتقلبات ... فقلبه هو سر شقائه :

« ذكرياتى على الطريق هشيم لفها البرد ، لفها كالرفات !
« ... فأنا الآن فى الطريق وحيد ساهم الطرف شارد النظرات .
« ... المساء الكئيب يقطر حزنا والسكون الثقيل ينخر ذاتى .

* * *

« أنت يا قلب ، انت سر بلائى فتكلم ، وهات عذرك هات ،
« أنت اثخنت كل يوم جراحى وعصرت الدماء فى كلماتى ،
« فقطعت الحياة أجهد وحدى فى طريق الدموع والذكريات » (24)

(23) « نجوم ... » ــ ص 140 .
(24) « نجوم ... » ــ ص 139/140 .

لقد أصبح الآن يعيش وفى رأسه تعصف دوامة ٠٠٠ لم يبق ذلك الطفل الذى لا تزعزع أحلامه أوهام الكبار وهواجس عالمهم الشائك المضطرب :

« هوة العالم السحيق ، السحيق دوختنى ، فما عرفت طريقى ،
« فى ضباب الوجود ، شاهدت نفسى *فاعترانى الدوار من تحديقى !*
« ورياح الرصاص عجت برأسى وسيول الغثاء هدت عروقى ! » (25)

والشاعر لم يتهم قلبه إلا لأنه كان السبب فى ارتياد المجاهل التى سببت له شقاءه ٠ لقد عاد من تلك المجاهل بخيبة الانسان الشاعر ، الذى اكتشف حقيقته المبائسة ، حقيقة الشاعر الذى يعيش على حلم فينكشف له زيفه ، ويكتشف أنه ليس سوى مصادفة زمانية قد آحتواها مكان ما ، أسطورتها الجسد واللحم : الجنس ؛ وبعض الأوهام التى يؤمن بها وينخدع ببريقها ! بل ٠ إنه ليس سوى اتفاق زمانى قد أخذ منه الجسد ما أخذ ،ونهب منه الجنس ما نهب :

« أنت يا لحم ، انت أكبر دائى بعذاب الجحيم جد خليق ،
« يا عدوا حملته فى ثيابى يسكب السم فى زلال رحيقى ،
« كيف شوهت أنت وجهى لعينى ولماذا قطعت حبل الطريق ؟ ! » (26)

تلك هى النطفة التى تكونت منها مأساة وجوده ٠ ومما زاد تلك النطفة نموا وترعرعا ، فزاد مأساته حدة ، هو حسه الرقيق ، الذى كم قذف بشاعر مثله فى لجاج الاسى والألم :

« آه يا ربى إمن لى بحس ، فحسى حين يدوى الصداع جد رقيق ! » (27)

ذلك هو جعفر ماجد كما تعبر عنه هذه الباقة الذابلة : انسان خائب ، فاشل ، يرزح تحت وطأة شعوره بالمأساة ٠ وجعفر ، اذ يعبر عن خيبته ومأساته ، فانما يعبر عن تجربة جيل كامل ، هو الجيل الخائب ، أو جيل الخائبين ، الذى يعانى ، فى عالم اليوم ـ الخائب ـ مأساة التمزق الذاتى ٠ ولكن ، مع ذلك هل نستطيع فى النهاية إدماجه ـ ادماجا كليا ـ فى جيل الخائبين الديونيزوسى العالم ؟ أنا لا أعتقد أن ذلك من اليسر بمكان ، رغم إلحاح النتائج السلبية التى انتهينا اليها ٠ إنه يشترك معهم فى اكتساب الجنس عورة دائدة تنز القيح الصديد فى أعماقهم ، وفى اتخاذ بعض الاوهام

---

(25) « نجوم ٠٠٠ » ـ ص 141 ٠
(26) « نجوم ٠٠٠ » ـ ص 141 ٠
(27) « نجوم ٠٠٠ » ـ ص 141 ٠

ـ يرتدونها ثوبا سائسا ـ سلما الى تحقيق حلم بعيد ، حتى يكون الاصطدام الفاجع بين الفكرة والانجاز ، بين الوهم والحقيقة ، بين الواقع والخيال ؛ وفى الاندفاع اللاواعى مع نزعات النفس الغريزية ، حتى الوقوف على شفا هاوية الموت ـ تلك هى أبرز الخصائص التى يشترك فيها جعفر ماجد مع جيل الخائبين ـ من شعراء الرفض (Poètes du Refus) خاصة ـ وذلك ما يكسب ـ فى نظرى ـ شعر جعفر العالمية ، التى تثبت ارتباط الشاعر بسفينة عصره ...

كل ذلك يلح بادماج جعفر ماجد فى جيل الخائبين . إدماجا كليا ـ ولكن بصيصا من نور يشع خافتا فى آخر هذه الباقة من الورود الذابلة ، فيخفف من حدة هذا التشاؤم ، ويحدد من قيمة هذه النتائج السلبية . فالمرأة التى كانت عورة الشاعر السائدة ، فى كل من المرحلة الاولى والمرحلة الثانية ، تصبح فى المرحلة الاخيرة ـ بعد إحساسه بفداحة ما يثقل ظهره ويكبله من قيود ـ كائنا يعزيه : (Consolatrice) ، لأنها سر يشف وضوحا ، كالبلور صفاء ، عن معنى خالص ، وروح محض ، يحمل فى أعماقه سر الحياة ، وليست لحما ودما ـ فقد شبع من اللحم والدم ـ كما كانت من قبل . إنه فى لجوئه الى المرأة ثانية ليتخلص من وطأة الخيبة ، لا يتداوى « بالتى كانت هى الداء » ، على الطريقة النواسية ، ولكنه يقبل عن وعى منه ، لأنه اكتشف فى المرأة ذلك المعنى المحض والروح الخالص اللذين يشف عنهما ما تغرق فيه عيناها من الصحو ، وما يحيط بهما من حلم تعبر عنه هذه الهالة من الحزن :

« حنانيك

« حنانيك

« أنا أحيا لعينيك !

« لحب فيها باك

« لأحزان أراها فى محياك

« فتدعونى الى دنيا ذراعيك ،

« لأنسى فيهما ذكرى خطاياك ! » (28)

هذه الأنثى هى المرأة التى تخطت مرحلة الخطيئة لتعيش مرحلة الندم والاخلاص . هى المرأة التى تطهرت من الخطيئة واللعنة ، والتى يجد لديها الدعة والطمأنينة والروح ، فيقبل عليها ـ بعد التيه ـ يحمل من التعب أضناه ، ومن اليأس أقساه ، كالملاح الذى رجع من أعماق البحر وفى عينيه اشباح الخيبة والفشل ؛ ليلقى الى عينيها أحزانه ـ ويرتاح فيهما ـ :

« اذا ولى من الآفاق بعد اليوم ملاح

« وخلى البحر فى صمت المدى الازرق ،

(28) « نجوم ... » ـ ص 145 .

« ٠٠٠ واذا ولى والقى جسمه الواني
« برمل الشاطىء المذهب
« أنا ألقى إلى عينيك أحزاني ،
« وفي عينيك ارتاح
« لأني مثله متعب ! » (29)

ولكن الحنين الذي يعاود الملاح الى البحر وزرقته ، هو نفسه الحنين الذي كان ولا يزال يشد الشاعر الى المطلق وامتداده خلق الزمان والمكان ٠٠٠ وها هو ذا قد وجد المرفأ الذي ينطلق منه الى عالم الخلاص - دنيا الشاعر - حيث يغرق في الحلم ، وينسى اللحظة ، وتعود الى قلبه طفولته :

« إذا ما اشتاق للآفاق ملاح
« ونادته الى التيه فلم يصبر ،
« سأجري مثله فلكا ،
« وفي عينيك يا معبودتي أبحر » (30)

هذا التفاؤل ، الذي انفتح لنفس الشاعر نافذة ، هو الذي يميز تجربة ماجد الفردية عن تجارب غيره من الجيل الخائب ٠ فهي لم تنته الى يأس ذريع رغم ما نالها من الخيبة ٠ واعتقادي أن ليس مرجع ذلك الى ما تجلى في شعر جعفر من « رفض » (Refus) قوي حازم في ثورته على الواقع الذي أراد - الشاعر - نسيانه ، فعاش اللحظة الباسمة ، كأحد « الصاديين » (Sadiques) ، بل الى ما ذكرته من قبل ، من توق الشاعر وحنينه اللافح الى المطلق اللامتناهي ، الذي يمكن ذاته الثابتة من التمركز ، والانسان إلاله فيه من التغلب على الحيوان ٠٠٠

بقي الآن أن نجيب على سؤال كنا طرحناه : ما هي الملامح التي تظهر لنا لذات الشاعر الحقيقية ، من خلال هذه المراحل الثلاث التي تولد فيها حلمه ونما ، ثم انتهى الى تلك النهاية الخائبة ؟ الواقع أن تبين هذه الملامح ليس هينا ، سهلا ٠ فخيبة الشاعر في حلمه قد جعلت كل ما كان من الممكن تكوينه ، حولها ، ينهار ٠ ولو تحقق حلم الشاعر لسهل تبين ملامح هذه الذات في سماء الصحو التي كان الشاعر يتمنى الذوبان في فضائها ٠ ولعله في المستقبل ، يسعى الى تحقيق أصالة هذه الذات ، للقارىء ، بمحاولة إبراز ملامحها في شفافية ووضوح ، خاصة وأنه على موعد في مرحلته الاخيرة مع المطلق ، حيث يتعانق الروح والطمأنينة ، وتتجلى الذات مجردة عن الاوهام (*) ٠

- يتبع -

إ٠ م٠

(29) « نجوم ٠٠٠ » - ص 135 ٠
(30) « نجوم ٠٠٠ » - ص 136 ٠

صفحة من تاريخنا

شعر : علي خشادم

خواطر اثارها في نفسي طفلي الذي لا يتجاوز الرابعة من عمره حين سألني يوما ـ وقد سمع الرئيس يخطب في الجماهير ـ من الذي يتكلم ؟

سمع البيان من الرئيس ، مدويا عبر الاثير
تتلوه عاصفة من التصفيق ليس لها نظير
فرنا الى المذياع مشدودا الى الصوت الجهير
وبدا يسائلني ، وفي عينيه يلتمع السرور
من ذا أبي؟من ذا الذي انشرحت له كل الصدور؟

ونظرت للطفل الصغير ، لوجهه المرح الطروب
فرأيت في عينيه وجها خفه نور خصيب
وعرفت أنه وجه من بعث الكفاح لدى الشعوب
وقرأت آيات من الاخلاص ، للبطل الحبيب
لا تعجبوا ، فلقد ترشف حبه ضمن الحليب

ولدي ستدري في غد من ذا الذي يتكلم
ولسوف تعلم في كتاب الدهر ما لا تعلم
ظلت بلادك تحت نير الذل ـ دهرا ـ تجثم
لم تلق في ابنائها قلبا عطوفا يرحم
حتى درت يوما بأن ولد الحبيب الاعظم
فاستبشرت ، ودنا لها بدر الدجى والانجم

ولسوف تعلم كيف كان رئيسنا منذ الشباب
يسعى بعزم للفدى ، ذا همة فوق السحاب
لم يثنه عن سيره كيد الاراذل والذئاب
الفكر زاده كالمنار يشع ما بين الشعاب
أترى بغير الفكر تكتسح الحواجز والصعاب ؟

وتتبعت اخبـاره كتــل الغــزاة المفســدين
فتبرموا ، وأقض مضجعهم صـراخ الهـاتفين
فى كل حى ، فى المدائن ، فى قرى المستضعفين
الشعب هب منـاديـا ، متحديـا حتى المنـون
« إنا وراءك يا رسول البعث ، يا حامى العرين »

غضب الطغاة،وقرروا ان يوقفوا الزحفالرهيب
هذا الذى أضحى يقود مصيرهم نحو الغـروب
فتشاوروا ، ورأوا بان ينفى مناضلنـا الحبيب
كى يخمدوا نار الفدى، كى يطفئوا شرر اللهيب
تعسا لهم ·· قد فجروا البركان فى كل القلوب

وتواصل الزحف المقدس هادما كل الســدود
كل القلوب تكاتفت ، وتضافرت كل الجهـود
فى وجه اعداء الحمى ، رغـم المجـازر والحـديد
الشعب اقســم ان يخلص عنـوة ارض الجـدود
ويعيد للـوطن المفـدى قائـد الـوطن المجيـد

يئست فرنسا اذ رأت أن المعـارك فى ازديـاد
حتى المجازر لم تـزدها غيـر دفـع ، واتقـاد
فاستسلمت ، وأتت الى الربان تلتمس الـوداد
وتجيب مطلبـه الذى يـرمى لتحـرير البـلاد
واذا بـه وسط الحمى ، مـا بين آلاف العبـاد
والكل يهتف بالثنا : « عاش الذى بالنصر عاد »

صحف من التاريخ تقرؤها غـدا عمـا قـريب
فتقود خطوك فى الحيـاة منيـرة كل الـدروب
وتريك كيف الحق يعلو ، كيف تنتصر الشعوب
بالوحدة الصماء ، بالاصرار ، بالرأى المصيب
صحفا ستقرؤها،فتعرف مجدك الزاهى الخصيب
يكفيك فخرا ان ولدت وعشت فى عهد الحبيب

ع· خ·

مدير مدرسة أولاد قاسم
ـ قـرقنة ـ

الشيخ أحمد

قصة بقلم : محمد باردى

لم تكن عشية ككل العشايا (*) ٠٠ لقد مات الصيف واقبل الخريف ولكن شيئا لم يتغير من قريتنا السمراء ٠٠ ، وكانت عشية عابسة ، أقبلت فيهــا السحب من فوق البحر وتراكمت تراكما كثيفا ،، فاستقبلتها القرية السمراء بكل فرح واطمئنان ، فقد اضناها القحط واليبس فلا خصــوبة ولا مــاء ٠٠ ولطالما خرج الفلاحون وعمال الارض الى الخلاء ، ، يؤمهم الشيخ أحمد ، يبتهلون ويدعون وكانت أصواتهم رفيقة ، حنونة فيها لوعة وحرمان ، تدوى فى الخلاء المترامى دعوة وابتهالا ـ ارحم يا رب ٠٠! انعم يا رب ٠٠! استجب الى دعوتنا يا رب ٠٠! وتنسكب حزينة كئيبة الى منازل القرية فتقطر لها قلوب النساء والاطفال الصغار ، لوعة وأسى ٠

وفى هذه العشية ، تعم الفرحة قلوب الفلاحين ، فتدخل المنازل الصغيرة والاكواخ وكانت قطرات المطر الثقيلة تصيب رؤوس الاطفال الصغار،فيهرولون فى الازقة الضيقة المبتلة ، ، وكانت اصواتهم الصغيرة تردد لحنا جميلا يحفظه سكان القرية ولكنهم لم يرددوه منذ زمان ٠

يا مطر يا خالتى ، صبى على قطايتى ٠٠ قطايتى مبلولة بالزيت والزيتونة وتنساب هذه الاصوات الرقيقة ، حلوة لذيذة٠فتدخل المنازل والاكواخ المتناثرة فتفرح النسوة ويغمر الاطمئنان قلوبهن ٠ فها هى نعمة الله مقبلة ورحمته قريبة ٠٠ ان الله رحمان رحيم ، قد استجاب الى دعوات أزواجهن وعما قريب ستخصب الارحام ٠٠ وستكون الحياة ٠

ويقرع الشيخ أحمد باب منزله الصغير بكل قوة وعنف ، فتستقبله صالحة جزعة خائفة ترتعد مفاصلهــا ٠٠

ـ مالك يا شيخ ٠٠ الله يستر ، ماذا حدث ؟

ويسكن ما بها من جزع وخوف عندما يأخذها زوجها مرتبا على كتفيها ٠

(*) استوحيت هذه الاقصوصة من مأساة عاشتها مدينة قابس اثر فيضان فظيع فى اكتوبر 1962 ٠

ـ الله ، يامرا ، ، ألم يحدث شيء ، انظري السماء ٠٠ ابشري يا امرأة ٠٠ ابشري يامرا ، ، ان الله استجاب الى دعوتنا ٠٠ السماء ستمطر الليلة ٠٠ سينزل المطر ٠٠ سينزل المطر ٠

وتمتلىء ساحة المنزل الضيقة حركة ونشاطا ٠٠ فيعلو ضجيج الاولاد ٠٠ المطر ٠٠ المطر ٠٠ وتستيقظ الحاجة مبروكة ـ والدة الشيخ أحمد من نومها الطويل ٠٠ وتنتصب قائمة تتحسس الحائط فتعثر على النافذة الصغيرة وتخرج رأسها منها الى ساحة المنزل فيلسعها نسيم بارد وتصيبها قطرات مطر غليظة فتصيح فى زوجة ولدها :

ـ صالحة ـ ٠٠ هل وضعت ـ القصعة الحديدية ـ تحت ـ الميزاب ـ انت لا تصلحين لشيء ٠٠ هذا الجيل لا يصلح لشيء ٠٠ انها مصيبة ٠٠ انها مصيبة ٠

ولكن الشيخ أحمد لم يدعها تنهى حديثها الطويل فيقاطعها ٠٠

ـ قلنا لك منذ زمان لا تفتحي النافذة ٠٠ انت مريضة ومن يدرى يا حاجة ٠٠٠ وتعود الحاجة الى فراشها ٠٠٠ فتمتد عليه وهى تلعن بصوتها الاجش بنات هذا الجيل ٠٠ وما هى إلا دقائق حتى تسبح فى نومها الذى لا ينتهى ٠

ويزداد الجو تعكرا فتسود العشية ويسيطر الظلام على القرية ، فتغوص فى السواد القاتم وتنزل قطرات المطر غليظة سريعة وسرعان ما تمسى سيلا جارفا ينزل من السماء ٠٠ ومن حين الى آخر يومض برق عنيف فيكشف عن ساحة منزل الشيخ أحمد الضيقة التى امتلأت ماء ٠٠ ويشتد البرق فتصحبه هزات عنيفة ٠٠ هزات الرعد التى تكاد تقوض جدران المنزل الصغير ٠٠ فيسرع الاطفال الى « السدة » المنصوبة فى ركن من اركان البيت الذى يضيئه قنديل شاحب يكاد يموت ضوءه ٠٠ فيندسون تحتها وأسنانهم تصطك فزعا وخوفا ٠٠ فيشتد غضب الشيخ أحمد المنتصب وراء النافذة الصغيرة يراقب المطر ، فيزمجر فى اطفاله الصغار المرتعدين :

ـ تخشون المطر يا كلاب ـ قوموا وانظروا المطر ٠٠ انها رحمة الله ٠٠ ابشروا ٠٠ ابشروا ٠٠ ولا تكفروا بنعمة الله ٠٠ فعما قريب ستخصب الارض وتعم الرفاهية ويحول نظراته الى زوجته ـ صالحة ـ التى يلوح على وجهها بعض الخوف والجزع ولكن نظرات زوجها أعادت اليها شجاعتها وثقتها ٠٠ ويضع الشيخ يده فوق لحيته الطويلة مزهوا ٠

ـ ألم أقل لك يامرا ٠٠ اننا سنمطر باذن الله ٠٠ ان الله لرحمان رحيم ويواصل كلامه عندما يجد صالحة ، زوجته الشابة ، تبتسم اليه ابتسامة رقيقة

ـ بعد غد ان شاء الله ، أعدى لى صاعين ـ زميطـة ـ و ـ ويبـة قمـح ـ و ـ ويبتين شعير ـ فسأذهب الى ـ شانشو ـ أزرع بقعة من الارض ٠٠ ان الله رحيم يامرا ٠

فتجيبه صالحة بصوتها الخافت الرقيق : ان شـاء الله يـا شيـخ ٠٠ ان شاء الله يا شيخ ٠ ويظل واقفا وراء النافذة الصغيرة المطلة على ساحة المنزل الضيقة ٠٠ يراقب قطرات المطر الغليظة من خلال ومض البرق الذى يضىء من حين لآخر ساحة المنزل ودنيا القرية الصغيرة ٠

وتستيقظ ـ الحاجة مبروكة ـ من جـديد على قعقعـة الـرعد التى تكـاد تقوض اركان بيتها فتصيح بصوتها الغليظ ـ صالحـة ـ يـا صالحـة ـ ولكن الشيخ أحمد يخرج رأسه من نافذة بيته ـ صائحا يجيب والدته ٠

ـ نامى يا حاجة ـ نامى واطمئنى ٠ ان العام عام خير يا حاجة ٠٠ العام عام خير يا حاجـــة ٠

وتستكين الحاجة وتلقى جسدها النحيل مرة أخـرى على الفـراش الصلب وتغوص فى نومها الذى لا ينتهى ٠٠

ويعود الشيخ أحمد ينظر الى خيوط المطر التى تبدو صفـراء تميـل الى احمرار عندما يضىء البرق بهو المنزل ٠٠ ويستيقظ من تأملاته الطويلة عندما تصيح به زوجته ٠

ـ يا شيخ ٠٠ انظر ٠٠ الماء يدخل الينا من عتبة الدار ٠

ويلقى بصره على الحصير المطروحة فى بهو البيت ٠٠ فاذا المـاء قد اجتازها الى « السدة » المنصوبة هناك ٠٠ ويلتفت الى زوجتـه صالحـة التى ارتسمت على صفحة وجهها سمات الجزع والخوف ، فيمسح لحيته المتدلية ثم يأخذ زوجته ويربت على كتفيها ٠

ـ لا تخافى يا امرا ٠٠ أنه الغيث ٠٠ انه الغيث ٠

ويسرع الى السدة المنصوبة ويأخذ بكل رفق وهدوء الوسائد التى القى الاولاد رؤوسهم عليها ٠٠ ثم يضعها فوق عتبة البيت ليمنع الماء من الدخول ولكن الماء أخذ يعلو شيئا فشيئا فى ساحة المنزل ٠ ثم تسلل بين الوسائد ودخل يملأ بيت الشيخ أحمد ترابا أحمر ٠٠

ومن بعيد بدأت النساء والاطفال تدخل منزل الشيخ أحمـد ٠٠ وتشعـر صالحة بالخطر ٠٠ ويستيقظ الاطفال الصغار ٠٠ ويزداد الماء الاحمر علوا ٠.

انه يكاد يدخل من النافذة الصغيرة ٠٠ لقد اقبل النهر غاضبا ، حاقدا ، يجتاح القرية السمراء فيزداد صراخ النساء والاطفال٠٠ الى السطوح ، الى السطوح ٠

ويخرج الشيخ الى ساحة المنزل وتتبعه صالحة والاولاد ، ، ويصرخ الشيخ فى وجوههم ــ الى السطح ٠٠ الى السطح ٠٠

ويتجهون كلهم الى السلم ٠٠

وكان الماء قد اجتاز النافذة الصغيرة التى كانت تطل منها الحاجة المبروكة عندما صارت صالحة والاطفال فوق السطح ٠٠ وتصرخ صالحة فى زوجها الذى غاص نصفه الاسفل فى الماء البارد ٠٠

ــ الحاجة يا شيخ ٠٠ الحاجة يا شيخ ٠

لقد تركوا الحاجة نائمة فى بيتها ولم يسمع لها حركة منذ طمأنها ولدها ودعاها الى النوم ٠٠ وأسرع الشيخ الى بيت والدته ، وفتح الباب بعد جهد كبير ٠ فاذا الحاجة منتفخة فى ركن من اركان البيت يلعب بها الماء ٠

ويلتحق الشيخ بزوجته واولاده فوق السطح ، والمطر ما زال ينزل سيلا جارفا من السماء وتفهم صالحة ما أصابهم فتنزل الدموع من مقلتيها وتمتزج بماء المطر النازل من خصلات شعرها المتدلى ٠٠ دموع اللوعة والاسى ٠

ويقطع الشيخ الصمت ٠٠ فينظر الى اولاده الذين يرتعدون ٠٠ وفى زوجته الباكية فيقول لها فى هدوء :

ــ الله خير ٠٠ والبركة فيك يا صالحة ٠

ويسكن المطر ٠٠ وتتفتت قطع السحاب ٠٠ وكان صباحا مشرقا أطل على القرية ، فيخرج الشيخ أحمد الى أزقة القرية ، فيشتت صارخا مزمجرا ، جموع الرجال الجاثية فى صمت وخشوع أمام المنازل المتناثرة ٠٠ ثم يهدأ ويرتاح عندما يصل الى ساحة القرية ويجد الشيوخ ملتفين حول « الكانون » يطبخون الشاى ٠ ويبعثون فى اجسادهم الباردة شيئا من الدفء والحرارة ، فترتسم على شفتيه ابتسامة رقيقة :

ــ الله خير يا جماعة ــ والبركة فيكم ٠

فتجيبه الجماعة :

ــ البركة فيك انت يا شيخ ٠٠ ويمدون اليه كأس شاى أخضر ٠

م٠ ب٠
ــ كلية الآداب ــ

وجهك الأسمر

شعر : فضيلة الشابي

غَامِضٌ ، غَامِضٌ وَجْهُكَ كالآه
إنْ تَجَلَّى فِي ظَلامِ القَلَقِ
غَامِضٌ ، قَدْ تَبَخَّرَتْ مِنْهُ الْحُرُوفُ
وَضَاعَتْ . . . فَلَمْ يُرَاعِ وَحْدَتِي وَلَمْ يشْفِقْ
الحُب . . . فِي قَلْبِيَ شَمْسٌ أَضَاعَتْ فَضَاءَكَ
فَأصْبَحَتْ غُصَّةً تَتَحَرَّقْ . . .

وَنَادَيْتُكَ . . . وَالصُّبْحُ مَا زَالَ طِفْلاً
خُذْنِي إليكْ
وَفِي عَيْنَيْكْ . . . دَعْنِي أحَلِّقْ
وَمِنْ خُيُوطِ وُجُودِي
أنْسِجُ التَّارِيخَ . . . فِي مُقْلَتَيكْ
وَبَيْنَ يَدَيْكْ
دَعْ أيْدِي ، رُوَيْدًا ، . . . يَتَرَفْرَقْ
وَكَمْ أرَدْتُكَ مَلْجَأً فِي الطَّرِيقِ
لَكِنْ . . .
لَمْ تَعُدْ أنْ كُنْتَ مَلْجَأً مُغْلَقْ

ف. ش.
68 — 10 — 22

مقابلة

مع الشاعر اللبناني

« انسي الحاج »

اجرى الحديث : محمد مصمولي

مقابلتي مع « أنسي الحاج » أثناء نزوله ضيفا مبجلا مع الوفد السينمائي اللبناني بتونس (وطنه الثاني) أثناء المهرجان الدولي الثاني بقرطاج، لم تكن مقابلة سطحية عابرة بل كانت لقاء تكميليا لصداقة في « الكلمة » و « الحرف » متبادلة من الطرفين بواسطة ما قرأ لي وما قرأت له ـ (في مجلة « الفكر » من جانبه وفي مجلة « شعر » البيروتية من جهتي أنا ..)

لهذا لا مناص من الحديث عن مجلة (شعر) في معرض الحديث عن « أنسي الحاج » أحد عناصرها البارزين بجانب نخبة من زملائه : يوسف الخال وأدونيس وجبرا وغيرهم .. أرى شخصيا أنه من الوفاء للحقيقة وللادب أن يعترف كل ذي ادراك صائب وحس سليم بأن دراسة الشعر العربي المعاصر لا يمكن أن تكون موضوعية وصادقة الا متى قرأت لمجلة « شعر » ألف حساب وحساب .

فبالرغم مما قيل ويقال حول هذه المجلة من طرف التقليديين والمغرضين و « قائلي اللا شيء » وبالرغم من جوانب الضعف والهنات والمحاولات والفشل الجزئي في بعض مراحل مجلة « شعر » فالاكيد والثابت أنه بفضلها وللمرة الاولى في تاريخ الادب العربي المعاصر ، نرى قضية الشعر الجديد **مبسوطة** على مستوى النظر والبحث العلميين والفنيين ـ وذلك لان « أنسي الحاج » ورفاقه قد أوجدوا في الحركة الشعرية العربية مناخا ووسطا للتفاعل بين الشعراء العرب والتعبير عن تجاربهم بحرية مطلقة . وقد أثاروا النقاش وكانوا **هدفا** لردود فعل نقدية تختلف درجة مستوياتها ونواياها ولكنها على كل حال « ردود فعل » لابد منها للفكر والفن وحسبها اى تلك الردود ـ أن أعانت أسرة مجلة « شعر » على جعل الشعر قضية لا مجرد انفعال أو حكمة . فالشعر مع « أنسي الحاج » وأدونيس وغيرهما

أصبح يطمح الى رؤيا أو رؤى الانسان والوجود، تستشف العالم وترسم أبعاده • اذن ـ وكما جاء في الافتتاحيات ـ ليس ثمة تشبث أو دعاية لايديولوجية شيوعية أو سياسية من أى نوع • فقضية الشعر هى قضية مشتركة « وتحاضن فكرى » نقى من كل اعتبار آخر غير اعتبار الفكر والحرية والانسان ••

والشاعر « أنسى الحاج » ـ الذى سأنقل ما دار بينى وبينه الى قراء ـ (مجلة) الفكر ـ هو من أبرز عناصر مجلة (شعر) وله ثلاثة « دواوين » شعرية او بالاحرى « مجموعات شعرية » ـ لان كلمة (ديوان) لا يستسيغها (أنسى الحاج) لما يشتم فيها من رائحة القدم والكلاسيكية •• له اذن « لن » و (الرأس المقطوعة) و (ماضى الايام الآتية) !

بجانب الشعر ـ يتحلى «أنسى الحاج» بميزتين أخريين هما (النقد) للشعر والترجمة والتعريف بالادب الغربى • وهذا النشاط المزدوج عند (أنسى) ورفاقه قد مكن مجلة (شعر) من خلق اتجاه نقدى جديد بلور حركة الشعر الحديث وأقام جسرا بينه وبين تجارب ومفاهيم الشعر الاجنبى ••• أما انتاج (أنسى) فى هذا المجال فهو مبثوث فى المجلة وفى (الملحق الادبى) لجريدة (النهار) البيروتية • ثم لانسى الحاج أيضا كتاب يحمل العنوان التالى « ملامح من الادب الفرنسى » •

حدثت « أنسى الحاج » عن أدبنا التونسى وصحفنا ومجلاتنا المختلفة فقال لى « لم أعرف الى الآن الا النادر منها • قرأت بعض أعداد من مجلة « الفكر » فبالرغم من الصعوبات الكثيرة التى تواجهها من حيث انتشارها فى المشرق ، بامكانها ومن واجبها أن تلعب دورا رئيسيا فى حضن المواهب الجديدة والتعريف بالادب التونسى واقامة صلة الوصل بينه وبين أدب المغرب عامة والمشرق العربى كله • قد تكون (تونس) فى المغرب مثل (لبنان) فى المشرق • عليها وبامكانها أن تلعب دور « الوسيط الثقافى والمنبر الحر » ـ هذا كلام الشاعر المبدع « أنسى الحاج » الذى يلذ لى تقديمه لكل قارىء يؤمن بأن التجديد عملية تطورية يكون ارتباطها بالتراث القديم على أساس حرية الخلق لا على أساس المادة الفنية الموروثة بما يحيط بها ويخنقها من اعتبارات مصطنعة ومهترئة •

الاسئلـة والاجوبـة

(س) قيل ان حضرتك – اى الشاعر – أنسى الحاج (صاحب ديوان : « لن ») لا تهدف الى بناء عالم جديد على انقاض هذا العالم المتاكل ٠ فما هو اذن مفهوم الخلق عندك ؟

(ج) لا أعترف لك على الفور بأني صرت مبتعدا الى حد بعيد عن هذه الهموم ، وأرى سؤالك يرعبنى ٠ لقد نسيت ٠ ماذا قلت فى « لــن » ؟ فى « لــن » مقدمة طويلة ملأى بالاحتجاجات والادعاء ٠ هل تصدقها كلها ؟ أحيانا ، فى ما بعد ، لا ٠٠٠ المقدمات النظرية فى الشعر أشبه ما تكون بمرافقات النيابة العــامة ٠

مفهوم الخلق عندى ؟ سأقول لك بكل بساطة : طبعا هناك أولا المعطيـات الطبيعية (ما يسمونه الموهبة او الخيال او الاحساس أو الحاجة الى قول الشىء) ثم هناك الكيفية (ما يسمونه الاسلوب او الشكل) وطبقـا لذلـك الشكـل والاحساس يصبحان جزأين فى كل ، يصبحان موقفا واحدا ٠ لكن الاهم من كل ذلك ، فى النهاية هو **العطاء** ٠ أى العاطى هو « الشعر » أى الشاعـر ٠ وسواء أكان هذا العالم متداعيا أم ناهضا ومتاكلا أم متضامنا ، ومهما يكن « مفهوم الخلق » تبعا لذلك ، ليس هذا هو المهم ٠ المهم هو الخلـق بذاتـه : يكون تخليدا للحياة أو لا يكون ٠ يكون ضد الموت أو لا يكون ٠ يكـون فى قلب الاحشاء او لا يكون ٠ يكون مشعا ، شفافا ، محررا ، خدوما لسعادة البشر او لا يكون ٠ لا يهمنى كيف يبدع الشاعر شعره او الرسام لوحته ٠ لا يهمنى الا الشعر ، اى الشاعر ، الا اللوحة ، أى الرسام ٠

ثمة عطاء أو لا عطاء ، وثمة عطاء « **يصل** » ، « **ينتقل** » الى البشر أو يبقى مقطوع الصوت ٠انهم لايتعلمون الخلق فى المدارس ، كما أنهم لن يستطيعوا قتل الخلق بالرصاص ٠

(س) – تقول – يا استاذ أنسى الحاج متحدثا عن شعرك « كلامى هذر والشعر قهر مشدود النواجذ يخنقه الحنين » فالشعر بالنسبة لك هو «الجنون»٠ وتقول فى المقدمة لديوان « لن » : « ان أمام هذه المحاولة امكانين : اما الاختناق او الجنون بالجنون ينتصر المتمرد ويفسح المجال لصوته كى يسمع » ٠ فما هو مفهومك اذن للشعر وللجنون ؟ – ثم تعريفك الخاص لقصيدة النثر ؟ ورأيك الخاص الموجز فى تجربة أدونيس ويوسف الخال فى هذا الاتجاه ؟

(ج) الجنون ، كما استعملته فى مقدمة « لن » هو اللا عادى واللا مألوف والضد المتعارف عليه • هو عصيان القوانين • أى هو الحرية • عندما بدأت كتابة الشعر بالنثر كنت أواجه سدا منيفا من الرفض والمقاومة والسخرية • لم أكن وحدى لكننى كنت وحدى • غامرت بكل شيء • كان الاحتمال الطبيعى هو اما أن أتراجع أمام « الفشل » واختنق ، أو أمنح « جنونى » الشعرى فرصة أخرى للازدهار والتفتح وأمضى فى طريقى • لقد مضيت • أنا متمرد • أقول هذا من باب تقرير الامر الواقع • « معى » تمرد كأن تقول « معك » صداع ، أو ألف دينـار •

دعنى أرجع الى قضية « الجنـون » • لسنوات خلت كنت أحس أن العالـم متوازن وعاقل وان الناس « هم » المجانين • كنت أظن أنى « أنا » مجنون • كنت أقف أمام ساحات بيروت المشعشعة بالكهرباء وبناياتها الطويلة المزدحمة بالنشاط والدهاء ، وأتساءل : أيمكن أن يكون كل هذا مجنونا وأنا وحدى العاقل ؟ كنت أشعر بأنى مذنب ، وأن العالم سليم وبرىء • لو يمكنك أن تعرف كم كنت مخطئا حينذاك • لا تصدق لحظة واحدة انك « أنت » المجنون • انه مجنون بالمعنى المنحط ، الاجرامى ، اللا انسانى • مجنون • لكنـه ، هو الاكثرية ، يبدو كأنه « هو » العاقل • ذلك بأن الاكثرية هى التى تفرض النظام والقوانين • هى التى تستثمر الحياة • لذلك يبدو العقلاء ، وقد صاروا أقلية ، يبدون « جانين » • أقسم لك أنى : لست مجنونا • لقد أصابنى هذا العالم ببعض عقده ومركباته وأمراضه لكنه لن يقنعنى ابدا بعد الآن بأنه هو المصاب وأنا الانحراف • هو الانحراف وأنا الصواب • لماذا ؟ لانه يريد خوف الانسان وأنا أريد فرحه • لانه يريد سحق الانسان وأنا أريد حـريته ــ لانه يـريد الشقاء وأنا لا أريد الا السعادة •

وما أبعدنا عن قصيدة النثر ! تريد تعريفى لقصيدة النثر ؟ بسيطة جدا : انها قصيدة ! قصيدة غير موزونة ولا مقفاة • « قصيدة نثر » • انها قطعة شعر تقرأها (تغنيها) وتحبها ، أو لا تحبها • بكل بساطة • الباقى اجتهاد •

رأيى الخاص الموجز بتجربة أدونيس ويوسف الخال الشعرية فى قصيدة النثـــر ؟

أدونيس عرج على قصيدة النثر مـن باب التجريب المختبرى ، مـن بـاب التنويع الشكلى ، وقد أفاد كثيرا • لكنه مطبوع على الوزن والاشكال الحديثـة فى الوزن تعطيه معظم ما يشتهى •

يوسف الخال ؟ كل الاشكال بالنسبة الى يوسف الخال موضوعات «اختبار»•

ان أكثر ما يستهويه فى الشعر هو الوقوع فى تجربة « التجديد » · مسحور بالمبتكرات · الشعر العربى فى نظره لن ينطلق الا بعد دخوله فى كل التجارب · لذلك لا يهمه « الشعر » بقدر ما يهمه ، الآن ، الخلاص من القديم · يوسف الخال يعتمد الشكل الجديد - أى شكل كان - أحيانا ، حتى دون شغف عميق به ، ومن قبيل الهواية · من قبيل جس النبض ·

(س) - فى العدد (16) من مجلة « شعر » كتبت يا أنسى الحاج دراسة عن الشاعر الفرنسى أنتونان آرتو ، فقلت : « لن أقدر أن أعطى عنه دراسة منسجمة · انه يربض على ولا أستطيع » فما هو وجه الشبه ؟ وما هى العلاقة بين مرض الشاعر آرتو بالسرطان واستعمالك المفرط لكلمة « سرطان » فى شعرك ؟ فالى أى شىء هى ترمز ؟

(ج) وجه الشبه هو هاجس الجسد · جسد الجنس وجسد الموت · جسد اللذة وجسد المرض والعذاب · كان أرتو (وهو لا يزال شبه مجهول فى فرنسا نفسها) ينظر الى جسده ويقول : كيف يمكن أن أصير حرا بالمعنى الكامل ما دمت عبدا لجهازى العصبى والهضمى ؟ ومات أرتو بالسرطان · أنا ، منذ ماتت أمى بالسرطان سنة 1945 ، رسخ فى اعتقاد بأنى سأموت بالسرطان · بأنه مرض وراثى · بأنه رمز لشىء رهيب هو تفكك الحياة وتعفنها وانهيار العالم ، عندمااكتشفت انتونان أرتو قبل سنوات وكتبت ما كتبت · أحببته لحوادث حياته أكثر مما أحببته لشعره · وجدت فيه برهانا على هواجسى · السرطان فى شعرى هو المرض المعروف ، نعم · بكل بساطة · لكنه أيضا كل « دورم » لماذا لا يكون سبب السرطان ، كما كتبت لى مرة قارئة مجهولة ، هو كبت الحب ، هو منع التعبير عن حاجاتنا ، هو الحرمان ، هو الاستعباد النفسى والجنسى ! قد يكون · وهذا يعيدنا الى الحرية · لا شىء يستحق الموت الا الحرية ، ولا شىء يستحق الحياة الا الحرية ، ولا شىء يستحق القيام من الموت الا الحرية·

(س) - المرأة كشكل غائبة فى شعرك · فهل أنت - يا أستاذ الحاج - قد « صهرتها فى لهيب من الميتافيزياء الشعرية ، وذوبتها فى الرؤيا » كما يقول (أدونيس) أم نفيتها عمدا من عالمك الشعرى ؟

(ج) ليست غائبة تماما · فى البداية ، ربما · ولعل سبب هذا الغياب الشكلى للمرأة فى شعرى (فى « لن ») هو ما يسمونه « التصعيد » · كنت محروما · الحرمان يولد الصوفية · الحرمان يولد التصعيد · التصعيد يصل الى الغيب · التصعيد تجريدى ، هنا · المرأة فى شعرى وفى حياتى هى الكل ،

هي المطلق ، هي الحياة • أستعيض بها عن الطبيعة وعن الله • انها الجمال التمثالي البارد كما أنها نار الحب • انها الموت المضاد للموت • قل لي ، هل تعرف أنت أروع من امرأة رائعة ؟ قد يكون تفسير أدونيس صحيحا ، لكن ثق اني لم أنف المرأة عن عالمي الشعري • هذا هراء ! لو لم يكن هنالك امرأة في العالم لكنت انتحرت • انها وحدها تستحق الانتظار ، والعطور ، والزيارة •

(س) ـ أنت يا أستاذ أنسي ـ قد حذفت في ديوانك (لن) كثيرا من الحروف التي تصل بين الكلمات • وعديت الفعل اللازم مباشرة على الضمير ، فهل ترى أن التجديد ينبغي أن يشمل حتى اللغة وقواعدها ؟

(ج) ـ الشعر لغة • لغة الشاعر هي ، قبل كل شيء ، « هو » أي : دورته الدموية ، أنفاسه ، ضغطه ، سرعة نبضه ، لغة الشاعر في جسده • اذا كنت عديت الفعل اللازم مباشرة على الضمير فليس لاني تعمدت التجديد ، بل لاني « أتكلم » هكذا •

(س) ـ مجلة « شعر » التي تعد أنت ـ « أنقى » عناصرها على حد تعبير أحد أسرتها في رسالة منه من باريس في 1961/2/25 الى يوسف الخال ديوان (قصائد في الاربعين) هذه المجلة الرائدة ، تبحث لها عن رؤيا خاصة ، فهل تراها أنت شخصيا قد نجحت في تحديدها ؟

(ج) ـ كانت مجلة « شعر » اطارا ممتازا لنشاط شعراء وكتاب يولدون ولادة جديدة • الرؤيا التي تسألني عنها كلمة مطاطة • ليس لمجلة « شعر » رؤيا شعرية وانما لكل واحد من شعرائها رؤيا شعرية • مجلة « شعر » ككل مجلة رافقت أو حضنت حركة جديدة ، هي في الاخير ، « مجلة » • محض مجلة • هي منبر • وقد نجحت « شعر » في أن تكون الغرفة التي اجتمع بين جدرانها أولئك الذين كانوا يولدون ولادة جديدة • ويوم شعرنا ان نشاطنا بدأ يفتر ، أوقفناها ، ويوم شعرنا أننا عدنا بحاجة اليها ، أصدرناها من جديد • المجلة تجيء وتروح • نحن أهم منها • المجلة ليست حزبا • المجلة خشبة مسرح • يغلق المسرح أبوابه أو يفتحها ، لا فرق • ليس هذا هو المهم• المهم هو رجل المسرح • اذا كان عند رجل المسرح شيء يقوله ، يقوله • اذا المسرح أغلق أبوابه فلن يغلق رجل المسرح فمه • والا يكون رجل المسرح تافها•

(س) في مقال لك تحت عنوان (واقعية المرض والانفعال) بمجلة شعر (عدد 2 ، السنة الاولى 1957) تقول انك قد زرت تونس • فما رأيك في تونس وما هو الهدف من زيارتك ؟

(ج) ـ لى فى تونس أصدقاء كلما تركتهم لارجع الى بيروت أحسستنى مقتلع الكيان من وطنى · فى تونس براءة لونها أخضر ولها رائحة العنبر · أحيانا يخيل الى أن تونس هى لبنان الضائع · هى وجه لبنان العفوى ، الصديق ، الهادى · أحيانا أكره لبنان لأنه ينسينى حب تونس ·

لا أقول هذا مجاملة · أول سفر كان لى خارج لبنان هو تونس ·

لذلك لا يمكن أن أحبها الا بشغف ، بمثل الحنان اللا محدود ·

أما الهدف هذه المرة فهو الاشتراك بمهرجان قرطاج السينمائى · بجانب ذلك ـ وكما تعرف أيها الصديق محمد مصمولى ـ هدفى هو السفر : هذه المرأة الهاربة فى الهواء ، أمام الطائرة ، بسرعة تخترق جدار الموت !

م· م·

الاقزام

شعر : الطاهر الهمامي

(1)

مدينتي تعج بالاقزام
في حضرة الاقزام
مدينتي لا تعرف المنام
أقزامها ينتظرون زحمة الظلام
ليقذفوا الحجار في زجاجنا
ليقرعوا الابواب
ويرتموا على الصحون في شراهة الكلاب
ليسألونا الساعة
أو يطلبوا ولاعه

(2)

مدينتي لا تعرف السلام
تعج بالاقزام
بلاقطي فواضل السجائر
من أحرقت شفاهم فواضل السجائر
براصدي البيوت والمتاجر
والصائحين
في كل ما محطه
بالبيض والارغفة الخشكار والفطائر

(3)

مدينتي تنتظر السواح

فى كـل عـام ترتـدى الزينـات والافـراح
ليكثـر الاقـزام بالنهيـق والنبـاح
يستمطـرون رقـة المـلاح
ليمسكـوا الاذيـال ، يبسطـوا الاكـف ، يشربـوا ثمـالة الاقـداح
ويرمقوا بنصـف عيـن من يمـر ،
ليـزنـوه فى الغـدو والـرواح ..
ـ أقـزامنـا يـا سـادتى ألسنهـم فصـاح
معسـولـة الامـداح

(4)

المفلســـون
يـا للجنـــون
أى الـزجـاج يقـذفـون
أى البيـوت يـرصـدون ؟ !
قضـوا حيـاتهم
عـلى الـدروب يتسكعـون
ليجمعـوا الفـواصل
ويلعقـوا الصحـون !

ط . ه .

العروسة ـ فى 68/8/26

أشـــواق

شعر : حسين سفطة

طالبة في الجامعه		لكل حسن جامعه
لكنهـا رافضـة		لكل شيء مانعه
جبارة في حبها		تخشى شيوع الشائعه
يا حرف كم ناغيتها		والنفس دوما ضارعه
والقلب كم يهفو لها		والعين منها دامعه
رقراقة ذرافة		عبرى ستهمي دافعه
لا حول لي إلا معا		ن من فؤادي ساطعه
إشعاعها أهزوجة		من ذوب نفس لامعه
تنصب في أعماقها		بالرغم عنها قابعه
تبقى على طول المدى		نجوى بدنيا رائعه
زيدي من العرفان في		آفاق درس واسعه
واستمتعي بالعلم قد		تأتين يوما طائعه
صدى فاني صامد		بين الدروب الشاسعه
أحيا بذكراك التي		ضاقت بروحي الجائعه
تهتز من شوق الى		دفق الفيوض النابعه
رغم الجفاء السرمدي		رغم المآسي الفاجعه
القلب ما أدركته		تلك السنين الضائعه
روحي فدى مختلة الـ		عينين حيرى راكعه
مستاءة ملتاعة		ـ من تيه عين ـ خاشعه
قولي : كفى ! أقنعتني		بالحب إني سامعه

ح. س.
ـ المنستير ـ

الانسان الصفر ... خيال والحاد ...

بقلم : علي الشمسي

باسم التجربة القصصية واعتمادا على ــ تعبير رجل يبحث عن نفسه ــ كان الانسان الصفر في العدد الماضي من مجلة الفكر دعوة جريئة الى الانحراف والالحاد ٠ ولنا بعدما اتضح ان عز الدين المدني لم يجعل لعمله الغامض هذا وحدة موضوعية فنية ان نحاسبه على صحة فكرته التي لم تعتمد اهم مقومات العوامل الذاتية ولا الشخصية ولم تصور صراعا ما باسلوب معين داخل النفس ولا خارجها رغم هذه القدرة التعبيرية الغريبة التي تتحدى اتجاهاتنا المذهبية على حساب هذا الذي ــ فيه من الغموض ما في انفسنا ــ من خلال اسطورة خيالية لم يكن لها ولن يكون لها وجود بهذه الغرابة المبالغة في الانزلاق اللغوي والمعنوي ٠٠٠ ونحن نريد ان نعرف في اي مكان او زمان جدت او تجد مثل هذه الحوادث التي اراد بها صاحبها ولاشك انتهاج مذهب غريب يفهم بـه فلسفة الاخرين ٠٠٠ الانسان الصفر لون من الالوان البعيدة عن الادب لما فيها من حركات تعاظمت اضطراباتها وتبعثرت اتجاهاتها فتعثرت بمبدا سخر له الكثيرون منذ انطلاقته جهودا فكرية جبارة لتركيزه وتحقيق انطلاقته وتقييم معالمه الهادفة ٠٠٠

لا شك وأن أصعب الاشياء هي ان يعرف الانسان نفسه كما يقول (سولون) وان كان هذا ــ الانسان الصفر تنطبق عليه هذه النظرية فانه كان على عزالدين المدني ان يبحث له عن طريق ينمي بها لديه الوازع الديني لا ان يرتمي لاهثا بالفاظه الغريبة في اعادة ما يقول ومحاكاته لان (المحاكاة) او محاكاة الاراذل تخلق الكوميديا) كما يؤكد ارسطو وان كانت تخلق لدينا المأساة او التراجيديا المرة لانها اوضحت ما يعانيه الكاتب اثناء خوضه لهذا التطاحن اللفظي المعنوي المشتق والعابث بآيات كريمة سجدت لها الجبال والقوى البشرية والكونية كلها الا تفكير رجل يبحث عن نفسه وسوف لن يجدها كما اننا بدورنا لـن نهتدي اليها مهما حاولنا البحث واطلنا التنقيب لانه من صنع الخيال المنطلق اذ ان هذه الاحزاب تداولتها السنة متباينة اللهجات واحتضنتها عقول متفاوتة التكوين واستمعت اليها اذان متفاوته الحساسية ، اتـرى لم يتوصل البعض منها الى ادراك ولو البعض من حقائقها ام لهجة هذا ــ الصفر ــ اطربـت الجميع فمضوا مثله يبعثرون الرؤوس يمينا وشمالا متظاهرين بالوعي ٠٠٠

ثم ماذا عن هذا الرجل التائه الذي استطاع ان يقدم لنا تشبيهات رائعة وان كانت غير منطقية وصورا مزخرفة بديعة الالوان وان كانت غريبة ، افلم يكن حفظ الاحزاب على حقيقتها اهون عليه من هذه الاختراعات اللفظية والمعاني

الشاذة ... وهذه المأساة ماجاءت لتخلق بقية المآسي الوانا من التعاطف الذي يصل به القاريء الى هدف ما قد يكون القضاء على مقومات بطلها السلبية من اجل النظافة الاجتماعية او الذاتية او لنقل من اجل تطويره حسب ما تقتضيه ماهية الادب المأساة ... كنا نود لو وضع غير عز الدين المدني ما نسميه تعليلا او توضيحا لتفسير هذه الظواهر الغريبة غرابة الكثير من الالفاظ الواردة في النص ولمحاولة جعلها تخضع للمنطق ولو بنسبة ضئيلة . وان ما ننكره هو ان الآية الكريمة التي تعيش في اعماقنا يجعل منها الكاتب مادة يزيفها رجل قد يكون لا ذنب له ما دام لا يفهم ما يقول ولا يقصد الاساء ما دام يحاول اخفاء افلاسه وعجزه في تلاعيبه اللفظية ...

ان عزالدين المدني يبحث ولا شك عن التجديد باستعماله هذا اللون الذي لم يتجاوز التقديم المباشر وكان عليه ان يتصور مدى ما خلفت قراءة هـذه المسلسلة المطولة وهذيانها من تاثير ونقمة في اوساط اجتماعية وثقافية ودينية لم نسجل لها افلاسا في التفكير ولا حتى في التاويل ولا عجزا في فهم العقائد الدينية التي لم يحاول احد مطلقا منذ القديم معرفة اصولها ولاحقائقها ... فالعيب الذي نسجله اذا هو ليس وليد الفكرة وحدها لأنها جديرة بالاعتناء والتقويم وانما في هذا الاسلوب الذي حاول به صاحبه ان ينتصر للفن باسم الرجل الغامض على حساب العقيدة المقدسة والآية الكريمة وكان عليه ان يقدم لنا انتفاضات هذا الباحث عن نفسه في قالب روائي او قصصي يكون امتدادا وتاكيدا لما يريد ان يعبر في اطار ــ الفن للفن ــ واذا اودع المجتمع في الفنان كل ثقته فليس من حق هذا الاخير ان لا يتفانى في تقديم اعمق واصدق واغنى النماذج الفكرية والادبية وان لا يندفع مع العقيدة الدينية المركزة لينسجم مع الشذوذ والتناقض بين الطبيعة العقائدية والانتاج الفكري ...

وان ما زاد المسألة تعقدا هو اننا كلما حاولنا اخضاع جزء من هذا العمل الى منطق معين ولو مزيف نفشل فنكتفي بان نقول انه فن قصصي تهتز لـه القيم الدينية والاجتماعية لانه يتحدى مناخ عصرنا الذاتي والفكري معا : (خلق الانسان من بزقة . من قردة . من خلية من دودة وحشية وارسلنا عليهم القمل والجراد والخنافس الدنافس والضفادع واكلوني البراغيث والبق والناموس والجرذان والاحناش ...) فكاننا نعيش الادب بلا عصر ونعي الاشياء البذيئة بلا فكر لمجرد كونها صادرة عن انسان يبحث عن نفسه من خلال ثرثرة لا حقيقة لها ولا معنى ولا هدف . والكاتب بالرغم عن كل شيء وكما تقتضي الظروف الادبية الصرف مطالب باتخاذ موقف مالكي يجعل من هذه الخواطر المبعثرة دراسة نفسية باسلوب فني حتى ينتصر على كل هذه التناقضات وحتى لا يجعل هذه المغامرة الادبية في شكل قوالب مستعارة لا تقيدها انماط مذهبية ولا تقاليد دينية تؤمن بان الفن فلسفة الحركات الفكرية والثقافية .

علي الشملي

ــ المنستير ــ

نقد ام تحامل

بقلم : عبد الرزاق الهمامي

فى عدد نوفمبر ، طلعت علينا مجلة الفكـر الغـراء ، بنقد توجه به الأخ عبد القادر الطرابلسى الى الشاعر الشاب الطيب الريـاحى حول موضوعه فى الشعر الغزلى ، وقصيده الى شاعر غزلى الصادر بعدد جويلية 1968 ·

وما دام باب النقاش مفتوحا فى هذا الموضوع ، وما دمنا نؤمن أن النقاش الادبى سبيل مثلى الى اخراج أدب حى ، رأينا من واجبنا أن نكتب هذه السطور مشاركة فى النقاش ، وردا على مقال الاخ الطرابلسى ·

يحاول بعض الناس كبت الحقيقة ، وضرب الانتفاضات الاصيلـة ، يريـد بعضهم الوقوف أمام المارد الثائر ، ويسعون الى اسكات البراكين المتفجرة · ولكن متى أمكن للناس اسكات البراكين ·

سواء فهم الاخ الطرابلسى أم لم يفهم دعوة « الريـاحى » ، سواء غفـل أو تغافل عن نواحى الايجابية فيها ، فالأمر لا يعدو أن يكون ايقاف قطار جبـار بحاجز منخيوط العنكبوت ·

دعا الطيب الى أدب يفجر فى جدبنا حياة ، وفى ظلامنا نورا ، وفى فراغنا دخان أفيون ·· الجنس الخسيس والرعونة المهينة ·· نبعا من الواقع العنيف ، واحساسا عميقا بالثورة المغيرة المجددة ، الرائدة فى هـذا الشعب الـرائد الثـائر

كلمة الى الاخ الطرابلسى نريد بها تنبيهه ، وتنبيه أمثاله ، نقول له فيها : يا سيد عبد القادر لم يعد الشعر سلة مهملات نضع فيها بقايـا الاحـداث ·

لم يعد الادب سجلا خاويا للوقائع « بطولات وهزائم » كما قلتم ·

لم يعد الاديب مسجلا لوقائع وهزائم ، وسكريتيرا خاملا فى مكتب التاريخ الغابر · الادب أصبح طلائع النضال ، ورائد الثوار ، الادب أصبـح شعلـة منيرة فى قلوب المستيقظين من أهل هذا الجيل ، الادب نـور يسطـع لكشف

الحقيقة ، ورسول مبشر بالانسان الجديد فينا ، وبالامل الوليد فينا ، والبعث الجديد فينا • والاديب لم يعد أسير نهد ، ولا عبد لذة وضيعة وأفيون مسموم• أديبنا الجديد ، وأدبنا الوليد حرب على الفقـر ، حرب على الظلـم ، حرب على المسخ ، حرب على تابوتنا القديم ، حرب على كل ما نشعـر بأنه منـا ، وأنه عار علينا •

فلنبارك هذه الاجراس التى تدق بعنف ، ولنسر مع شعلة الثورة المتجددة فى أدب الثوار فى هذا الشعب الثائر •

ولنقل الى السيد عبد القادر وأمثاله : نحن هنا لا نغسل أقـدام الغـوانى « بالشمبانيا » ، ونرشف ماء الغسيل ، بل ننزف العرق ، وننزف الدمـاء ، من أجل قتل السم فى دمائنا ، وقتل الدوار فى أحشائنا • نحـن نـردد مع الرياحى ومع القديدى :

فقــل معــى يــا صــاحبى الــوداع
للشعــر فــى القــوالـب المعلبــة
للشعر يهجـو أو يمـوت تحت امـرأة معـذبة

ونبارك مع الطيب ومع القديدى :

وبــارك الشعــر الـذى يعيـش للقضيـة
وبــارك الشعــر الـذى يفجر المنابع السخية

ونقول معهما :

نـقــل : المجــد للحـريـة

ع• ه•

هل من جديد في دنيا الشعر

بقلم : عبد الرحمان الكبلوطي

نظرت فى عدد شهر نوفمبر من مجلتنا الادبية المحببة « الفكر » فاذا هـو طافح بالمواضيع من نثر ومسرحية وشعر ، وأحصيت عدد القصائد التى جاءت فيه ، فبلغ عددها الثمانية ، أربعة منها فى « صلب المجلة » وأربعة فى « بريـد القراء » وهى كلها لشعراء شبان مازالوا يفتشون عن الكلمة الاصيلة ، وعن المعنى الجيد ، شعراء تبنتهم (الفكر) واحتضنتهم احتضانا ، ورعتهم رعاية الجنان المخلص لزهراته الشابة .

وأنا أشكر لمجلتنا الغراء تشجيعها هذا ، وأعترف ـ على لســان اخوانى الشعراء ـ بأياديها البيضاء من أجل ابراز المواهب وصقلهـا .
ولنبدأ نقد هذه القصائد محاولين غربلتها بكل تواضع وموضوعية .

صـــلاة للحـرف المناضل ص : ص : 40 — 42

هذا القصيد الذى كتبه أحمد القديدى على **تفعيلـة الرجز** يذكرنى ببيت للشاعر العراقى معروف الرصافى :

وأجود الشعـر ما يكسوه قائله — بوشى ذا العصر ، لا الخالى من العصر

لان (صلاة للحرف المناضل) أغنية من النوع الجيد جاءت مكسوة بوشى عصرنا ، بحيث أنها عالجت موضوعا حيا له قيمته : هو موضوع الكلمة الحرة والبيت المناضل والتوق الى الاخلاص للقضية وتمجيد « حبيبتى الحرية » (1)، والخروج من عهود الرق والعبودية .

المجد للحرف الذى لا يعرف الطلاء
المجد للحرف الذى لا يلبس القنـاع
... فقل معى يا صاحبى الوداع
للكلمــات الموميــاء
للحـروف المتعبـة

للشعر فى القوالب المعلبه
... فقل معى يا صاحبى الوداع
وبارك الشعر الذى يعيش للقضية
وبارك الشعر الذى يفجر المنابع السخية
وقل معى ،
وقل معى المجد للحرية »

بهذه الابيات ينتهى نشيد أحمد القديدى الذى أعتقد أنه خطا خطوات كبيرة ثابتة فى دنيا الشعر الحر .

خطيب ص 54

هى قصيدة فى عشرة أبيات على بحر الرمل ، كتبها رياض المرزوقى ، عالجت - فى البيتين الاخيرين فقط - فكرة المحب الهائم الذى جفاه الحبيب فبقى ينثر « الذكرى مع الالوان فى شمس المغيب » حتى لقى حبيبته ذات يوم ، وعوض ان تبادله حبا بحب ، فانها قدمته - ببرودة غريبة - لرجل معها ، وقالت « **انه فوزى ... خطيبى** » . أما الصور الشعرية التى وردت فلم تكن جديدة ولا طريفة ما عدا ما ذكر فى البيتين الخامس والسادس من أنه بقى زورقا حطمه الموج وانه ظل **يشرب** « **الماضى** مثل تاريخ رهيب » .

أما البيت السابع فكان غامضا بعض الشىء بحيث تعذر فهمه اذ فيه شىء من التناقض ... وأنا أعرضه على القارىء الكريم ، فلعله يفك طلمسه ويحل لغزه :

أنت لو ادركت حبى ليس حبى بعجيب !

فتيات سلامبو ص 60

هذا القصيد للطاهر الهمامى ذكرنى - من أول وهلة - بقصيد جعفر ماجد :

ضاع لى عقل وقلب فى صلامبو يا صلامبو !

وجعلنى أتساءل : هل كتب الهمامى شعره متأثرا بصلامبو ماجد ؟ أم بتجاربه الخاصة ؟ ولماذا (سلامبو) ولا حمام الانف او الزهراء او حلق الوادى ... ؟ على كل فهذا لا يهم كثيرا ولننظر بكل تجرد فيما كتب ولنعمل الفكر والقلب والذوق معا فى قصيدته لعلها تهدينا الصواب .

كان القصيد فى سبعة عشر بيتا من بحر المتدارك ، بدأه صاحبه على هذا النحو :

فتيات سلامبو الحلوات أفديكن ايا فتيات
أفدى الشعر وتسريحته وشذى ترميه النسمات٠٠ الخ

وقد رسمت البيت الاول عمدا لابين ما فيه من عيوب : لقد كانت (فتيات سلامبو) المخاطبات ، من غير أداة ، ولذلك فلا بد ان تكون عبارة (فتيات) **منصوبة** وبالتالى كلمة **(الحلوات)** لابد أن تأتى منصوبة أيضا باعتبارها نعتا للفتيات ، وظاهر من « السياق » أن حركة الروى فى الابيات الستة الاولى هى الرفع ولا النصب ، لذا فقد خالفت حركة الروى فى عروض البيت الاول حركة الروى فى ضربه ٠

أما بقية القصيدة فكان غير منسق من حيث **الشكل** اذ نرى ان الشاعر يقسم عمله الى أربعة مراحل : تختم الابيات الستة الاولى بألف وتاء مفتوحة (علامة جمع المؤنث السالم) ، وينتهى البيتان السابع والثامن بألف وراء (أحتار ــ النار) ، والابيات : التاسع والعاشر والحادى عشر بحرف الراء مرفوع (البحر ــ تفتر ــ السحر) ، أما الباقى فقد جاءت أضربها من نوع (مرميه ــ حوريه ــ أمنية) ٠

وهكذا نرى أن الابيات لم تكن منسقة من حيث الشكل ، على الاقل ٠ أما المحتوى ، فما فيه ؟ وما يتضمن من معان ؟ هو وصف لفتيات على شاطىء سلامبو ، يضيع لرؤيتهن العقل ويحتار ، وهو أمنية يريد أن يحققها شاب مولع مشتاق الى لؤلؤة بحرية ، صنعتها شمس بلادنا الذهبية ، وهذه الامنية غالية نفيسة ، صورها صاحبها وأبدع فى تصويرها ، قال :

لو كان لقلبى أفتحه وأخبى فيه حوريه
هيفاء الظل مراهقة ممراح الظل شمالية ٠٠٠!

عيد التلمذة :

هذا نشيد مدرسى جادت به قريحة حسين سفطة ، بث فيه من روحه عواطف صادقة نحو **الجيل الجديد** ، هذا الجيل الذى فتحت له المعاهد أبوابها فعجت ساحاتها بالشباب الذى جاء يسعى « لكرع العلم » حتى يفوز بالعيش «الرغيد» ويرفع المستوى فى وطن يحب أن يخصب حقل الفكر وتنضج سنابل العقول٠٠ هى أهزوجة لطيفة اذن ، صادقة اللهجة أعرب فيها (سفطة) عن حبه لوطنه وشبابه ، ختمها منشدا :

أهــزوجتى شعــرى ومــا شعــرى ســوى هــذا النشيد
مــن فيض قلــبى انــه مهــدى الى الجيــل الجديــد
فيــه أعيــد مــرددا بشــراك بالعيــد السعيــد

الى تــافهـــة

« معلوم أن المتنبى كان غليظ الكبد نفورا من النساء ، داعيا الى مجانبة عشقهــن ، اذ يقــول :

ومـا العشــق الا غـرة وطمــاعـة يكلـف قلب نفسـه فيصـاب ٠٠٠

لكن قلبه الصخرى تفجر بالحب لا محالة كسائر البشر ٠٠٠ وقال من شعر الحب والجمال أبلغ ما يقال :

قبلتهــا ودمــوعى مــزج أدمعها وقبلتنى على خوفى فما لفم (2)٠٠»

و (الطيب) الرياحى اراد ان يكون كأبى (الطيب) المتنبى فى قسوة قلبه ، وفى كرهه للنساء ، وأبى أن يلين كما لان المتنبى فى آخر الامر ، فهو (أى الرياحى) ما زال يعتبر حب النساء تفاهة وما زال (جديا) ، لا يعبد النهـد ولا يسجد للقــد :

أنــا أبــى وحسـبى أقــضى الحياة بجــد
لم أعبد النهــد يومــا ولا سجــدت لقــد ٠٠٠

وبالرغم من ايماننا بعدم « التدخل » فى عواطف الشاعر ولا فى طـريقة كتـابته ، فلنـا أن نستغـرب لم حصـر (الطيب) نفسـه فى هذا القـالب « الجدى » ؟ وهو يعلم ـ كما نعلم ـ أن خير الامور الوسط ، وأن أفضل قاعدة فى الحياة هى : لا تكن لينا فتعصر ، ولا يابسا فتكسر ؟

أما فيما يتعلق بصوغ القصيدة ، فقد وردت فى عجزى البيتين الثالــث والرابع هفوة (عروضية) تتمثل فى تسكين كلمتى الطريق ٠٠٠ والعشيق ، وبما أن الشاعر أراد التخلص من غلطة نحوية (العشيــق لا يمكن أن تكون مكسورة نظرا لانها مسبوقة بلست) ، فقد وقع ـ كما قلت ـ فى هفوة عروضية لذلك أتى الوزن مختلا ، والقصيد أعرج اذ كان كل (صدر) وكل (عجز) منه على وزن مستفعلن فاعلاتن خلا الصدرين المشار اليهما ، فقد جاءا عــلى وزن مستفعلن فاعلات ـ بتسكين التاء المفتوحة ـ وهذا ما أنقص من قيمة القصيد ٠

أجســـاد تحتـــرق

ومن غريب الصدف أن يرد هذا القصيد العمودى (على بحر الخفيف) والاباحى الى حد كبير ، مباشرة بعد قصيدة الرياحى الذى يرى العمر نضالا (وثورة واباء) ٠٠٠ وقصيدة محمد خالد مليئة بالصور الشهية والثمار الجنية : فالصدر يعلو والنهد يتدلى والعطر يتضوع ، والفراش يحترق ، والجسمان فى عناق ٠٠٠ وهى محاولة حملت لنا حكمة قديمة فى صورة جديدة مقتبســة ولاشك عن بودلار فى الغرب ، والرصافى فى الشرق (مثلا) ، وهذه الحكمة التى أنتهى اليها السيد محمد الخالدى هى :

هـوة هـذه الحيـاة واثـم فلنغــص علنـا نستنيـر !

وأود ان الاحظ للشاعر هفوة تتعلق بالوزن ، جاءت فى البيت الاخير ٠

شـاعرى هـذه الحيـاة ضلال تهنا فيها٠فكيف كيف المصير؟

فاليقين أن ألف (تهنا) زائدة فى الوزن ، قد أدخلت على بحر الخفيف الضيم كل الضيم ، اذ لو قطعنا البيت لقرأنا : فعلن فعلن مستفعلن فاعلاتن عـوض فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ٠

رسـالـة الى خطيبهـا المغتـرب

كتبها السيد عمر السعيدى الغريبى ، وجعلها كتابا موجها من صبية ولهى الى خطيبها الذى غادرها وهو قصيد ليس فيه طرافة ولا عذوبة سوى هذا البيت

وللطيـر فى كـل فجـر غنـاء لذيـذ كآمـال قلب شغوف

أما التكلف فهو ظاهر ، أسوق منه أمثلة (سواى سوى خافقى ــ الى قريتى عديعدلى ٠٠٠) وأما أغلاط النحو فلا أثبت منهـا الا (لتشـدو) فكان الحـق اظهار الفتحة على الواو ، لان الفعل منصوب بلام التعليل ٠

بطـــاقـــة مـــزيفـــة

ونختم جولتنا هذه فى رياض الشعر بهذه (البطاقة) الغريبـة « ذات الوجهين » كما يقال ، والتى قدمها لنا أحمد المختار الهادى : فهذا الحبيـب يقسم بالنفاق ، وهذه الحبيبة تنافقه عند العناق ، ونحن فى حلقـة مفـرغة ، فراغها غيوم وضجر وأمواج وسفر ، ونهاية هذا الفراغ بداية بلا نهاية ٠٠٠ الا أن القصيدة غريبة الصور ٠ غريبة المشاعر ، قوية حينا ، باردة فاترة أحيانا ٠

---

(1) اشارة الى قصيدة لنفس الشاعر نشرها فى العمل 19 ــ 7 ــ 1968

(2) مجلة الثريا ــ السنة الثانية ــ العدد 9 سبتمبر 1945 ٠ ص 12 ــ 13

أضواء الفكر

• **ملتقى القصاصين المغاربة :**

انعقد ابتداء من يوم 25 ديسمبر 1968 ملتقى القصاصين المغاربة بالمركز الثقافي الدولي بالحمامات وشاركت فيه ثلة من قصاصي بلدان المغرب العربي سنوافيكم بتفاصيل ذلك في عدد قادم ٠

• **جائزة القصة لسنة 1968 ــ 1969 :**

تعلن هيئة النادي الثقافي ــ أبو القاسم الشابي ــ انها كلفت لجنة خاصة بالنظر في القصص التي تقدم بها اصحابها للمشاركة في مسابقة القصة التي نظمها النادي بين كتاب بلدان المغرب العربي ــ تونس ، الجزائر ، ليبيا والمغرب ــ للاحراز على جائزة ــ أبي القاسم الشابي ــ لسنة 1968 ٠

وقد اتفقت اللجنة على عدم استحقاق اى قصة من القصص المقدمة للفوز بالجائزة ٠

وبناء على ذلك فقد قرر النادي الثقافي ــ أبو القاسم الشابي ــ تنظيم مسابقة جديدة للقصة الطويلة بين كتاب المغرب العربي لسنة 1969 حسب الشروط التالية :

1 ــ ان تكون القصة باللغة العربية الفصحى في اى موضوع يختاره الكاتب٠

2 ــ ان تقدم في خمس نظائر مرقونة ، غير موضوع عليها اسم المؤلف ومصحوبة بظرف يذكر بداخله الاسم والعنوان مع بيان عنوان القصة المعروضة ٠

3 ــ ان توجه في اجل اقصاه موفى شهر جويلية 1969 باسم السيد رئيس ــ النادي أبو القاسم الشابي ــ حي الوردية ــ تونس عن طريق البريد المضمون الوصول ٠

4 ــ ان لا تكون القصة قد نشرت أو أذيعت ٠

الجائزة المرصودة : ألف دينار تونسي ٠

والملاحظ ان مقدار هذه الجائزة وضعته الشركة التونسية للتوزيع على ذمة النادي قصد تشجيع الانتاج القصصي وهي تتعهد بنشر القصة الفائزة مع ضمان حقوق التأليف لصاحبها ٠

• جائزة الانتاج الادبي :

تعلن هيئة النادي الثقافي — أبو القاسم الشابي — انه نظرا لعدم مشاركة اى كاتب في المسابقة التي نظمها النادي للاحراز على جائزة الانتاج الادبي لسنة 1968 فقد تقرر تنظيم مسابقة جديدة في الانتاج الادبي لسنة 1969 موضوعها تاريخ الادب التونسي الحديث ابتداء من اواخر القرن التاسع عشر يكون مدعما بمختارات لنصوص من ذلك الادب تنير جوانبه :

أ — الشروط :

1 — يجب ان يقدم الانتاج باللغة العربية الفصحى في خمسة نظائر مرقونة ، غير مكتوب عليها اسم المؤلف ومصحوبة بظرف يذكر بداخله الاسم والعنوان مع بيان عنوان الانتاج المعروض •

2 — يجب ان يقدم الانتاج في اجل اقصاه موفى شهر جويلية 1969 باسم السيد رئيس النادي الثقافي — أبو القاسم الشابي بحي الوردية تونس — عن طريق البريد المضمون الوصول •

3 — ان لا يكون الانتاج قد نشر أو أذيع •

ب — الجائزة المرصودة ألف دينار •

والملاحظ ان مقدار هذه الجائزة وضعته الشركة التونسية للتوزيع على ذمة النادي قصد تشجيع الانتاج الادبي وهي التي تتعهد بنشر الكتاب الفائز مع ضمان حقوق التأليف لصاحبه •

• منظمة اليونسكو والأدب العربي :

بعد أن قررت منظمة اليونسكو أن تكون العربية لغة رسمية يعمل بها داخل المنظمة نطقا وكتابة اعتزمت ترجمة روائع الادب العربي المعاصر الى اللغات الاجنبية •

وإذا ليست لنا معلومات ضافية عن هذه الحركة الجديدة في المنظمة العالمية فيجب ألا يفوتنا أن نعمل على أن يأخذ الادب التونسي قسطه من هذا العمل الكبير • ولنا ما يمكن أن نزاحم به أدب المشارقة مثل الشابي والدوعاجي والمسعدي وبعض القصاصين الشبان الذين لا يقلون قيمة عن إخوانهم في المشرق • فاذا عجزنا عن التعريف بأدبنا في المشرق العربي فيجب ألا نعجز على إقناع المسؤولين في اليونسكو بضرورة إسهامنا في حقل الترجمة • ونحن هنا في تونس قادرون على القيام بهذا العمل فيما يخص الترجمة الى الفرنسية •

• وفاة جون شتينبك :

توفي في أواخر شهر ديسمبر القصاص الامريكي الكبير جون شتينبك عن سن تناهز ست وستين سنة •

• **رأى فى الشعر والنقد من لبنان :**

طرح مندوب مجلة « الجندى اللبنانى » على الدكتور خليل حاوى ثلاثة اسئلة هى :

1 ـ أتعتقد ان حركة الشعر الحديث يكتب لها العيش الدائم ؟

2 ـ كيف تفهم الرمزية فى الشعر ؟

3 ـ كثيرون عندنا يتعاطون النقد الادبى ، فما رأيك فيهم وفى هذا النقد ؟

فاجاب بهذا الحديث الذى رمنا نقله الى قرائنا الكرام لمزيد الفائدة :

1 ـ لو لم اكن اعتقد ذلك لتوقفت عن كتابة الشعر ، لانه ليس من الطبيعى ان اقف حياتى على تحقيق مشروع يداخلنى الشك فى قيمته الثابتة • بل اعتقد ان الشعر العربى لم يكتشف اصالته الذاتية التى يمتاز بها عن الشعر العربى القديم وعن الشعر فى الآداب الاخرى الا فى نتاج بعض الشعراء المحدثين فى السنوات العشر الاخيرة •

وإنى أعد الشعر العربى ، من شوقى الى سعيد عقل ، شعرا فيه الكثير من المعارضات والاصداء من القديم المتحجر ، والغريب المجلوب • وهو لذلك يفتقر الى طابع الاصالة المميزة • يستثنى من ذلك القليل من شعر جبران فى « دمعة وابتسامة » وفى « العواصف » وبعض التفجرات النابعة من اعماق النفس فى « أفاعى الفردوس » لأبى شبكة •

وما عدا ذلك فشعر تلتقى فيه آفات عدة منها : الافراط فى التباكى ، الجلجلة الخطابية ، التجريد الذهنى ، الترصيع والزخرف الخارجى ، والرقرقة السيالة السطحية • وكنت أحاول فى ثورتى على القديم ان احرر الشعر من جميع هذه الآفـــــات •

وأخص ما يوصف به الشعر الحديث المغامرات الجريئة فى اعماق النفس والوجود • فهو رؤيا واكتشاف للمجهول • وهو كذلك فن قادر على تجسيد ما يكتشف بالصور الحسية الموحية ، والايقاع النفسى المتفرد الاصيل •

2 ـ تجدر الاشارة هنا الى مفهوم الرمزية الذى شاع بين شعراءالجيلالسابق فى العالم العربى ، وبين الشعراء اللبنانيين بوجه خاص • وهو مفهوم مذهبى للرمزية الفرنسية كما حدده فيرلين ومالارميه وفاليرى • وقد داخله الكثير من عدم الدقة فى الاطلاع وسوء الفهم فى التعريف والتفسير • ومثلى على ذلك ان من ادعى الرمزية ، امثال سعيد عقل ، راحوا فى بعض نظرياتهم الشعريـــــة يقررون ما قرره مالارميه من قبل ، وهو ان الشعر خلق من عـــدم • والفـــارق بينهم وبين الشاعر الفرنسى هو الفارق بين عالمين متباينين كل التباين • فعالم الشاعر الفرنسى مالارميه يفتقر الى اله يشرع للقيم • ولهذا استطاع الشاعر ان يحل نفسه محل الله ، فيدعى القدرة على الخلق من عـــدم •

أما عالم الشعراء اللبنانيين ، ومنهم سعيد عقل ، فهو عالم اللاهوت فـــى القرون الوسطى ، عالم قد ترسخت فيه حقائق الاشياء وقيمها فى نظام مرتبى يمتد من الطبيعة عبر الانسان الى الله • وفى عالم كهذا يمتنع الخلق اطلاقا • وهذا الدليل على سوء الاقتباس وسوء التطبيق •

وهذا المفهوم المذهبى للرمزية يحاول ان يفرغ الالفاظ من معانيها المقـررة فى واقع الحياة ، ويجعلها شبيهة بالعلامـات المـوسيقية المجـردة ، يعنى انه يحاول ان يجعل من الشعر موسيقى ، فيمحو الحدود بين طبائع الفنون المختلفة وقد ادت به هذه النزعة ، فى الاخير ، الى الوقوع فى اللفظية الفارغة •

وهنالك مفهوم آخر للرمزية هو صفة عامة تقع عادة وبطريقة تلقائية فى الشعر متى صدر عن رؤيا تنفذ الى الحقائق الخفية فى الذات الانسانية وفى الكون ، ومتى عبر عن تلك الرؤيا بصور حسية تعنى ما تعنيه فى ظاهرها كما توحى بامداء لا متناهية تمتد وراء ذلك الظاهر • وهذه الصفة نلمسها فى الاصيل من الشعر بترائه المتراكم من هوميروس الى دانتى ، الى شكسبير ، الى الشعر الحديث •

كذلك يفيد الرمز الحسى بالغاء المجردات الذهنية من الشعر ، لانه يوحـد بين الجزئى والكلى ، وبين العام والخاص •

3 ـ ارى أن النقد الادبى فى ادبنا المعاصر نوعان : صحفى وجامعى •

أما الصحفى فيقوم عليه فى الغالب غلمان انصاف اميين وغلوا على الادب فى غفلة من الزمن ، ونقدهم يستهدف عادة التشهير والمجـاملة على حسـاب الحقيقة •

وأما الجامعى فلا يلتفت الى الآثار الادبية الا بعد ان ينقطع بها الزمن • فهو لا يواكب المحاولات الجدية الاصيلة فى الادب الحديث ، بل يترك المجال مشاعا لغير المختصين • وبهذا يتنازل عن المهمة الاولى للنقد الموجه الذى يفيد المبدع والقارىء معا • يستثنى من ذلك محاولات الذين جمعوا بين الثقافة الجامعية والذوق الادبى ، وتلمس البذور النامية ، والحدب عليها • ومن هؤلاء الاديب المفكر مطاع صفدى ، والاستاذ جورج طرابيشى ، وايليا حاوى •

• قياس درجة حرارة حيوانات ما قبل التاريخ :

توصل احد العلماء فى جامعة اريزونـا ، البروفيسير تونج يون هو ، الى استنباط وسيلة تقنية تسمح بقياس حرارة الحيوانات التى كانت تعيش فيما قبل التاريخ فى الحقبة المسماة « البليستوسين » • فهذه الطريقة تضع امـام الباحثين امكانية اجراء دراسات فسيولوجية على هذه الانـواع المنقرضة هى والظروف المناخية التى كانت تحيط بها •

وتنهض هذه الطريقة على حقيقة ان نسبة حامض من الاحماض ، هو حامض الهيدروكسيبرولين ، الذى يبقى فى عظام الاسماك ، تتغير حسب درجة حرارة الماء الذى تعيش فيه • وهذا الحامض الهيدروكسيبرولين أقل فى عظام أسماك المياه الباردة منه فى اسماك المياه الدافئة أو اسماك المناطق الاستوائية •

ثم بحث الاستاذ تونج ـ يون طبيعة تركيب عظام الاسماك فوجد انها تختلف عن اسماك المياه الباردة الى اسماك المياه الدافئة ، من حيث نسبة الهيدروكسيبرولين الداخلة فى تركيبها • وأدت هذه النتيجة فى الابحاث الى وضع طريقة لاحصاء وقياس درجة الحيوانات القديمة بتحليل هذه العظام وقياس تركيبها ، ومن ذلك يمكن التوصل الى استقراء حرارة الكائن العضوى والمياه التى كان يعيش فيها •

وواصل الاستاذ تونج ـ يون تجاربه وتحقيقاته فقارن بين محصلات التجارب والقياسات العديدة على شتى انواع الفقريات وغيرها من مظاهر الحياة الحيوانية القديمة •

وكان من أهم الحقائق التى انتهت اليها التجارب والابحاث والتحقيقات ان درجة حرارة الحياة الحيوانية فى تلك العهود السحيقة لا تختلف كثيرا عن درجة الحرارة التى تتصف بها كائنات مماثلة باقية على قيد الحياة فى نفس المجالات المعيشية •

وتتلخص اهمية هذه النتيجة فى انها تعنى بطلان نظرية كانت سائدة فى الاوساط العلمية ومؤداها ان السر فى انقراض تلك الحيوانات التاريخية هو حدوث تغيرات جوية هائلة قضت عليها وعلى امكان بقائها على قيد الحياة •• كما انها تلغى ايضا نظرية اخرى كانت ترى ان تلك الحياة الحيوانية القديمة كانت تعتمد على حرارة جسمانية مرتفعة لمناهضة الحرارة البيئية المنخفضة الى ان انقرضت •

(أنباء اليونسكو)

وهكذا لا ينى العلم فى البحث عن أبعد أبعاد نشوء الخليقة • بينما هو يواصل مغامرته الكبرى فى سبيل استكشاف ما عجز عنه منذ زمان واعتبره ضربا من المستحيل وما مغامرة أبطال المركبة الفضائية إلا مظهر آخر من مظاهر سبر قدرة الانسان • إذ هو بهذه وتلك يحاول أن يسيطر على ماضيه وحاضره ومستقبله • فعسى أن يكون كل هذا مساعدا على أن تكون المنزلة البشرية احسن بكثير مما كانت عليه فى القديم وما هى عليه الآن •